د. أحمد زلط

وجوه وأحلام

الطبعة الثانية
هبة النيل العربية للنشر والتوزيع
القاهرة ٢٠٠٨م



إهداء

يسعدني إهداء الطبعة الثالثة من "وجوه وأحلام "

إلى سبع سنبلات خضر......................

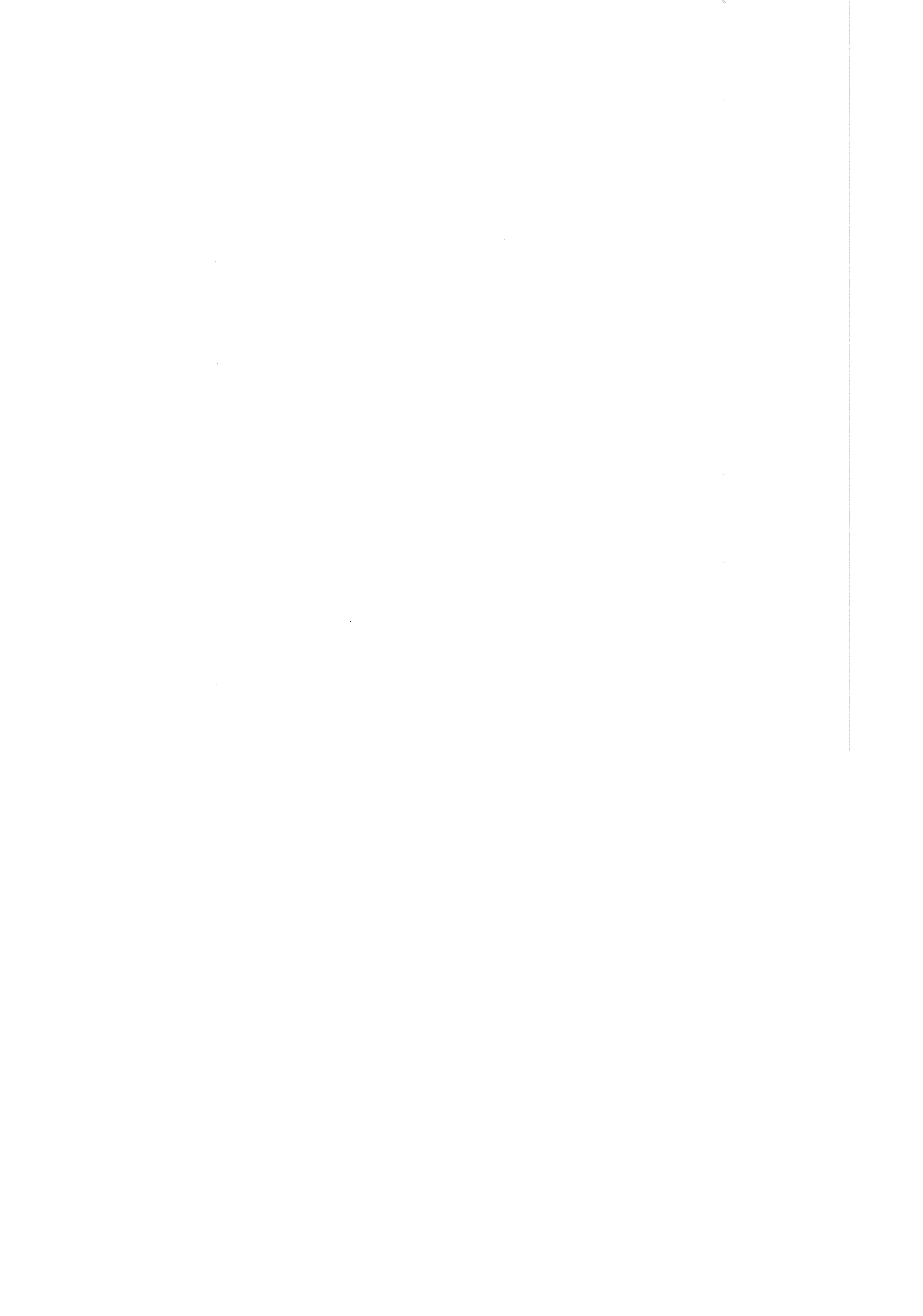
السعوديات والمصريات :

- سامية حسين
- سمية المقرن
- ليلى العربي
- منيرال الطحاوي
- منيرة السعران
- نانسي سلامة
- وفاء السبيل

تقديرا لإبداعهن : فنا، وخلقا وعلما ...

والله من وراء القصد

أحمد ...



مقدمة الطبعة الثانية

- عندما صدرت الطبعة الأولى من وجوه وأحلام في مطلع الثمانينيات عن سلسلة (أصوات) التي كان يصدرها الشاعر المعروف : حسين علي محمد ، وبإشراف فني للفنان : حشمت البنا، مدير قصر ثقافة الزقازيق- نفدت بضع مئات- من تلك المجموعة التي طبعت بنظام "الماستر" وأزعم أن معدل توزيع مثل هذا لعمل أدبي أول يعد وثيقة تعضيد للأصوات الجديدة التي افرزها عقد السبعينات.

- ولكن استغراقي في إنهاء بحوث الداراسات العليا بمرحلتي الماجستير والدكتوراه- فوت- عليَّ فرصة إعادة طباعة المجموعة فور نفادها.. أيضا قلل من كمية نتاجي القصصي، واعتقد أن ذلك نتيجة منطقية تواجه كل مبدع باحث أو العكس، وعلى الأخص القاص الذي (يختزن) على عكس الشاعر الذي ينفعل.

- والطبعة الثانية – تحاول- أن تنال إعجاب جمهور القراء الأعزاء في الشكل والمضمون. والله الموفق والمستعان.

أد. أحمد زلط
أستاذ الأدب والنقد
ووكيل كلية الآداب .
جامعة قناة السويس
ص.ب. ٧٧ الزقازيق
ت: ٢١٠١٣٩٨ /٠٥٥/ ٠٢
مو: ٣٤٠٠٧٢٨/ ٠١٦

مقدمة الطبعة الأولى

- كيف تمسك البرق في يديك ؟ .. وكيف تضع العالم بين قوسين من صنعك ؟.. .. وكيف تمسك عنان اللحظة – الديمومة– لتنسجها في قبضة الورق، المحاولة شبه مستحيلة.. يكفي أن تشير إلى نتاج أعوام مضت وشرارة (أصوات) متوهجة وآملة، وفوق صفحاتها نقشت وتنقش أحلام جيل الأدباء من كتاب وشعراء......

- كتيبة الفرسان تمتد من شمال الوادي حتى جنوبه والأقلام الواعدة تتواصل مع القراء وتتزايد – أصوات– توهجا وبريقا، فاتحة ذراعيها لكل الفرسان المبدعين ولك قلم أصيل صادق دءوب– يعرف أن الكلمة كانت والبدء وستظل أفضل ما منحه الله للإنسان...

• والشباب نبت من قهر هذه الأرض .. كتب معاناته لا يبحث عن التألق ولكنه يكتب الكلمة- الشهادة، أيقن الأدباء الطالعون من شرنقة الليل والحرمان أن الطريق غير ممهد وأن الماسكين بالأعنة لن يمنحوهم الفرصة المنتظرة.. وقال الشيخ الذي - جاوز الخمسين للفتى الذي عانقت يداه الثلاثين- الوهم: عليك أن تموت أولا قبل أن (يكتشفك) بنو قومك !.. ولأن الموت لا يجيء كما نتمنى فعلينا أن نمهد لنا طريقنا- الذي هو بالطبع غير طريقهم!...

و(أحمد زلط) قصاص من جيلنا، له صورته المتفرد ومذاقه الخاص، وقصصه تطمح أن تتجاوز ما هو كائن لتعانق الحلم والخيال والمثال.. ومن منا لا يحلم في هذا الزمن الجهم؟.. ومن أبرز سمات عالمه القصصي: عبارته الرشيقة وأسلوبه الرصين، الأنيق، ورؤياه المحلقة.. أيمكن أن تجد الآن أديبا يجمع بين العبارة البسيطة غير المفتعلة والجزالة في آن واحد...

ناقص من اصل المصدر

لكم دفعهُ إلى دائرة الانطواء هذا النداء الساخر.. إن شباب حارة الصيادين من حوله يحققون المغامرة بعد الأخرى على مشهد من عينيه، كانت تؤرقه أكثر قصص بطولات الهوى والأحلام الواعدة التي عايشها بينهم دون أن يجرؤ على الإقدام ولو مرة واحدة ليؤكد ذاته أمام الجيران والأهل والأقران.. يا ألف خسارة..؟؟ حتى (نظمي أبو دراع) ابن الحارة سائق عربة الأجرة لا تتوقف للحظة واحدة حولاته الجريئة في دنيا الليل.

أتـم

صاحبنا بليه أفندي العقد الثالث من عمره.. ولا جديد تحت سماء أيامه.. الحفر العميقة في رحم الزمن تشكلت فوق جبهته بالكآبة والغموض البعيد..، التفكه والتهكم يستمران من سكان الحارة، سيل لا ينقطع يتجمع فوق أم رأسه، يكاد يغرقه في وحدته أخر كل مساء .. يقوم.. تتراءى سموم القفشات أمام مخيلته كأفعى قاتلة تلتف حول عنقه ، تلدغه تهده تسلمه للنوم جثة شبه هامدة فلا يفيق من سباته صباح كل يوم إلا على

صوت يكرهه قدر كراهيته لنفسه، حين ينهره الأب حلاق الحارة قائلا:

فز انهض يا كسلان زي أمك ! . أكل العيش عاوز الخفية

....

....

(٢)

أضفت

- على صاحبنا- غرفة حفظ الملفات الكائنة ببدروم مبنى عمله زاد من جرعتها في حديث الأب عن مكانة ابنه التي تبوأها أخيرا في سلم المحاكم.. أما أم بليه فقد مضت تعيد ترتيب شقة الأسرة الصغيرة بحيث هيأت لكاتب الجلسات المرقى غرفة مفرده، وتكوم باقي الأفراد في الغرفة الثانية، أما الطارئ الذي جد على الساحة فقد بدأت ملامحه تبدو في تهافت بنات الحارة للتقرب من أم بليه ورعاية شئونها المنزلية . فتيات بسيطات ناضجات على عتبات الثلاثين ربيعا، جئن لأم بليه يتدللن وقد أغراهن سحر الوظيفة ..

سال لعابهن لها برغم احتقارهن طويلا لشخص صاحبها، وبينما الأم تراوغ والأب يكابر وينظر إلى آفاق أخرى كان الابن بليه تائها بين خيلاء وأوهام الأعباء الجديدة، فأصبح لا يعلم من شئون الحارة وأحداثها شيئا، باتت فقط مقرا لنومه كما كانت محلا لإقامته.

تفتحت

أمام ناظريه عوالم جديدة.. أصلح من هندامه وراح يتأنق في مظهره قدر طاقته صار قريبا من القضاة كاتبا لكل جلسة.. كل المترددات على المحكمة من الجنس الناعم.. جاء ماضيه صفحة تملؤها البراءة وقلة التجارب، وفجأة لقي ذاته في محك دائم مع سيدات في عمر الزهور ، ترملن أو طلقن أو في سبيلهن لذلك ومنهن من جاءت لتدفع عنها بطش رجل.. استهواه هذا العالم المأساوي الذي رمزه الأغلب الزي الأسود للشاكيات.. بفضول لم يعهده استطلع دقائق ملفات القضايا وقرأ أسرارها، فملف يثير لعابه وآخر يحرك فضوله وثالث يدق قلبه ناحية صاحبته برأفة يغلفها الأسى والحنين و..

مست (ليلى فؤاد) من بين الشاكيات شغاف قلبه، لم ير في حارة الصيادين مثلها دلا وأبهة وبهاء.. طار عقله. بهرته أناقة آسرة وجمال قتال ، قتله أكثر هدؤها في طلب إجراءات طلاقها من زوجها المغترب في دول الدولار لقد عرف صاحبنا بليه أن الزوج الثري كان قد وفد إلى المدينة في عطلة صيف وغرر بها وتركها لوحيدها الصغير ثم راحت تنتظره وهو يخدعها بالرسائل غير المنتظمة ودون عنوان.

....

....

تكررت صوب صاحبنا غمزات ليلى فؤاد .. عيون عطشى وجريئة في آن واحد، لم يدر سرها بعد.. حسنا.. اختصر بريق عينيها المسافة بين مرات ترددها إلى المحكمة وبين محكمة الأحوال الشخصية المزيد من الظلمة والعزلة العزلة فمضى يقتل ساعات نهار يومه بين أكوام الأوراق الصفراء ولشد ما تشابهت ألوان أوراق الملفات المتربة مع لون بشرته.. لم تجر الدماء في عروقه قوة وحيوية إلا مع صدى جميل لنداءات رئيس قلم المحضرين إليه كلما زعق بملء فيه:

- الله.. الله شغلك تمام يا مصطفى أفنْدي..

- مصطفى وا.. وأفندي مرة واحدة يا بيه؟!

- ذات صباح من أيام العمل انفرجت أساريره.. وقف في حركة عفوية بحيث لا تصل قامته القزمية إلى آخر ارتفاع للملفات فوق مكتبه.. هم هامسا في ود- بالقرب من أذن رئيس القلم:

- سيادتك أوعدتني بمفاجأة حلوة ؟

- يا سيدي .. رئيس الديوان أمر بترقيتك.. توصية خاصة.

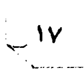
- أنا.. يا خبر ابيض؟ راسب الثانوية من أمثالي .. يترقى.. وفي المحاكم..

- ده من رضا الرؤساء عنك.. من باكر أنت كاتب جلسات.

- كا..ك..

....





اخترق الزحام كالسهم إلى خارج ديوان المحكمة لا يلوي على شيء سوى نظرة عميقة إلى حارته ولسان حاله يقول:

- كده كل الحارة تعمل ألف حساب.

- حسنا.. سأطفو على سطح الدنيا.

(٣)

التف الأهل والجيران حول أكواب الشربات المتربة التي نذرتها (أم بليه) بمناسبة الترقية في الوقت الذي خرج فيه الأسطى (فهمي) إلى الدكان وعلامات الزهو تملأ صفحة وجهه؟.. تلاحقه أنظار ماكرة جمعت بين الفرحة والشماتة، وقف بليه من خلف ساتر يراقب جموعا من المهنئين توافدوا للتهنئة .. ركز انتباهه يحصي من ينادي أمه بنداء محبوب يشتاقه:

أم مصطفى .. لا فائدة.. .لا فائدة الكل اعتاد المناداة بغيرها والتي يكرهها.. جف خلقه، بهتت بشرته وانسحب يردد في صمت أسيف:

مسير الحي يتلاقى يا حارة أ......

وذات لقاء قبل موعد احدي الجلسات استجمع شجاعته وحاصرها بوابل من الأسئلة..: قال لهم وهو يتلعثم:

-لازم دوخة المحاكم نطلعها على عينه.ردت ضاحكة في استنكار:

- ولا وزير العدل يعرف مكانه..؟ قال لها في انكسار:

- يبقى البوليس الدولي والسفارات تتصرف..ضحكت في سخرية أكثر:

- معارك المرأة مع الرجل لا تحتاج كل هذا..قاطعها مستسلما:

- الأمل موجود.. تكسبي القضية.. والغلطة ممكن إصلاحها .

غادرت ليلى فؤاد المحكمة ولأول مرة يودعها صاحبنا حتى باب سيارتها الخاصة وما لبث أن ارتد إلى أكوام الملفات يستعيد رائحة عطرها ، وثروتها ومشهد السيجارة بين أصابعها الناعمة تارة وبين شفتيها المتوردتين تارة أخرى، ثم راح يستغرق في تفكير عميق كيف يلبي دعوتها له لحضور حفل عيد ميلاد ابنها داخل فيلا التي لم يدخلها حتى الآن.

جذبته

أضواء الفيلا من بعيد.. وصل إلى الممر الداخلي كمتسابق يعدو في مضمار للجري.. لم يعترض طريقه البواب ربما لقصره البائن تصوره احد الأطفال المهنئين.. وفي خفة كان قد وصل إلى قبالة الصالة الكبيرة .. تسمر ولم يحرك ساكنا .. اسلم نفسه لروائح نفاذة .. خمر وعطر ودخان .. شيء لم يألفه من قبل.. أطل بعينيه زابلتين ووجه مكفهر إلى جوانب الصالة يرقب الحفل المزعوم.. لمح جماعة من و......و...... و...... و......
الكأس على حافة البار، استدارت الداعية للحفل في رشاقة تتلوى في خطوات لعوب واتجهت نحوه وأمسكت بذراعه قائلة:

- تفضل.. أهلا بالباشكاتب .. قلت لي اسمك أ...

لم يدر ما أصابه .. انحنى قليلا والتقط الصندوق وانسحب خارجا تتبعه بفستان مفتوح الصدر.. وربتت على كتفه في إشفاق وقالت:

- تبقى خدمتني قبل ما تسخن الحفلة.. ابني يشم معاك هوا في الجنينة؟
- حفلة؟ ..و..هوا..

ذابت أفكاره وانعقد لسانه وراح لتوه يداعب الطفل البريء خارج الحلبة وخيوط المشهد تروح وتغدو وشريط من طموحات مدمرة بعيدة.. عميقة تجثم فوق صدره كوخز الشوك وبقية من نجوى تأسره فيتنفس الصعداء والصمت المطبق يحتويه:

- ولا يهمك.. سأكون معها بطلا لليلة الميلاد..
- ....
- سيخرجون بعد قليل.. وسأولد من جديد
- ....
- وداعا يا حارة الصيادين.. هنا التمر والخمر و...
- وبينما كان صاحبنا يتعلق بأهداب أطيافه كان الطفل قد غط في نوم عميق فوق المسطح الأخضر.. فجأة راحت

الضوضاء تغطي الفيلا جميعا.. وقفت ليلى فؤاد تودع الشلة، بينما لمح صاحبنا وسط قهقهات الخروج الماجنة واحدا من المدعوين يقف إلى جوارها ومرتكزا على كتفيها.. لم يطل تفكيره أو يمعن فضوله للموكب الذي غادر الفيلا..

- خرست تطلعاته وتداعت أوهامه في اللحظة التي شاهدها معا يستديران ويصعدان السلم للطابق العلوي وهما شبه مخمورين.. هم صاحبنا بليه بدون تفكير و ترك الطفل..و.. حملته أقدامه إلى الباب الخارجي سار بضع خطوات وئيدة يتذكر هيئة الرجل الذي صعد معها إلى أعلا هناك.. قامته المديدة وصدره الواسع وصوته الواثق وعربته الفارهة، كلها أشياء تنقصه.. فجأة قطع جدار الصمت الذي لفه بنجوى أليمة صوت محرك عربة خرج منها سائق يعرفه جيدا.. شهق صاحبنا شهقة عالية:

- الأسطى نظمي أبو دراع .. مش معقول؟!..



ناقص من اصل المصدر

الحائط السنوي يتصدر الغرفة، تكاد تغطيها الأتربة لم تسترع انتباه أحد. وكأن معنى الدعاء سر مكنون في جوفه فقط، لقد كانت جبهته تشكل لوحة أخرى للسأم العميق فسنين خدمته الطويلة بالهيئة لم تصل به إلا حيث هو مجهولا.. مضطهدا.. يغص في القاع، مضت سنوات عمره رتيبة، لم يصل إلى أعلى درجات السلم الوظيفي .. ولم يحقق شيئا ذي بال، تداعت مثالياته أمام استهانة الشباب من الموظفين الجدد ما أكثر الساخرين منهم ومن تمسكه بمثاليات لم يألفوها وكثيرا ما تكرر الجدل الجدل الدائر في حلقات الفراغ والثرثرة، وكثيرا ما تشهد الغرفة بينهم مثل هذا الحوار والذي جاء ماكرا ومستهترا:

- الناس أتغيرت يا أفندم.. وسيادتك زي ما أنت.

- الضمير ثابت يا أولاد...

- هه.... أي ضماير؟... والرهان عليها مضمون جدا.

- والقدوة....

- تقصد الفهلوة... الأشرار أكبر من أي قدوة....

الحوار هكذا لا ينتهي إلى قرار ومع ذلك يتكرر في سخط على السنة الصغار من موظفي الهيئة.. دخان في هواء يعانق السحاب ليس إلا، وقبل أن يصلَ صداه إلى السادة تلفظه مستعمراتهم المكيفة ؟.. معذرة الحاجة مأساة إلى التقاط ونقاء من نوع آخر.. ليتهم يتعلمون.

ما زالت تطارد صاحبنا (صابر أفندي) الهواجس.. بريق المال قد يفسد منارة الذمم لكنه يصلح أو يشبع الرغبات أيضا.. غواية الشيطان له مستمرة.. تثيره، عدسات الإغواء مصوبة أمامه في كل عملية تقوم بها الهيئة.. الضعفاء يبهرهم الضوء بينما الأقوياء يلذهم الظلام لأنهم يخشون البريق .. لكل صباح إشراق شمس ولو في النفس، صباح اليوم في الهيئة قد لبدته الغيوم.. أطل (صابر أفندي) بعينيه من فوق نظارته السميكة على موظفيه متسائلا في حدة:

- اسمعوني .. كل واحد يعتبر نفسه المسئول عن ضياع ورقة أشعاري ؟ تبادلوا النظرات المملوءة بالخوف والدهشة واستجمع أحدهم شجاعته وقال:

- أي ورقة ؟.. تقصد يا أفندم؟...

- أنتم عارفين....

- .....خافوا سطوته بعد ثورة الشرر المتطاير من عينيه، ولربما يعرضهم لجزاء يمس قوت حياتهم.

- فقام أكثرهم غيظا منه وألقاها في سرعة البرق تحت قدميه ثم صاح في استفهام وخزي:

- يمكن تكون الورقة تحت سيادتك؟..

- ..انحنى.. التقطها وتفحصها ثم انحدرت على وجنتي (صابر أفندي) دمعتان كبيرتان وارتعشت جثته الضخمة، وخلع نظارته ضاربا كفا بكف ثم ضحك ضحكته الهادئة الباسمة قائلا لموظفيه في رقة غير معهودة:

- ما هذا ؟.. أول مرة وآخر مرة يا أفندية !؟..

أخذ الغضب ينفجر بينهم في صمت.. لمعت أعينهم كأنما لسان حالهم يقول في عجب منه... الاهتمام بالأشعار أكبر من الاهتمام بالعمل . كان النهار على وشك التلاشي عندما أيقظهم من لهوهم نداء أذان الظهر.

انسحب (صابر أفندي) إلى مسجد الهيئة الصغير تلاحقه نظرات مرؤوسيه بالحب الممزوج بالخوف.

عقب الصلاة كانت حبات مسبحة صاحبنا تحصي الثناء لله لكنه ما يلبث ثان يتجاوزها إلى الثرثرة والشكوى كلما أطبقت فوق أم رأسه مشكلة من المشكلات التي لا يستطيع لها دفعا.. انتقلت معاناته زفرات حارة يتراءى فيها واقعة كالعلقم وتتعرى بساطة حقيقة ما يحدث في بيته أو في دهاليز الهيئة بحيث لا يصل صدى هذه الثرثرة خارج إدارته القابعة في السفح.

في مكتب السكرتارية الخاصة لمجلس إدارة الهيئة كانت تتمايل بالهمس أجنحة الخفافيش مكن صغار الموظفين المنتفعين بثمار صفقة إنشاء العمارات السكنية الجديدة إياها، ويا لها من فرصة للتنفس خارج دائرة رئيسهم الصابر (صابر أفندي) يحملون ويتزيدون ويسيل لعابهم حول أطعمة التعاقد التي يجري تذوقها سرا وعلانية.. كم أنت مسكين مسكين يا صابر أفندي، إنه لا

يعرف الطريقة التي عقد بها مجلس الإدارة اجتماعه.. ولم يعقد؟ ولم أنقض؟.. ومعذرة مرة أخرى فقد انفض الاجتماع وتأجل فتح مظاريف عملية الإسكان الكبرى إلى موعد لا يعلمه إلا علية القوم.. خرجت شلة من موظفي إدارة المخازن من مكتب السكرتارية إلى إدارتهم كأن على رءوسهم الطير يتحاورون في استياء:

- يظهر المقاولين إياهم غابوا عن اجتماع المجلس؟

- ضروري الإكراميات والتسهيلات في الطريق؟ ..

- يا شماتة (صابر أفندي) في الكل.. يا للخسارة..

فقد عادوا إلى مكتبهم بخفى حنين في حين وجدوا رئيسهم الصابر متكئا على مكتبه غائبا في تفكير عميق مع شيطان شعره، فجأة هتف في أذنيه أحبهم إلى قلبه:

- سيادتك قاعد تفكر هنا.. والعملية الكبيرة وقفت.

- رد بصوت مسموع:

- أي عملية؟ تقف.. تتأجل.. أصحاب المصالح طريقهم واضح.. أنا من طريق وهم من طريق..

- رد أكبرهم في غيظ وفي غير اتفاق:

- شيء غريب.. حياتك كلها وعظ وكتابة أشعار.

- عم يا سيد.. دي صلوات مع النفس يا أولاد. .حلم ومثال و..

ضحك أحدهم:

- ها..ه.. طيب ولقمة العيش وعلبة الدواء.. و...

- الصغير بيكبر ولكل بداية نهاية .. ربنا يبارك في القليل.

كانت تقوى صاحبنا كانت قد أضفت عليه إلا يستسلم لمغريات صفقة مريبة أو ينظر إلى تحت قدميه أبدا طمعا في منصب لأنه يعلم أن المناصب زائلة وان النعيم المقيم ليس في دنيا تطحنها الصراعات.. يسخر منه ما شاء أن يسخر ولكنه كان

دائما يتقي مواطن الشبهات، صحيح إن انهيار عمارة من العمارات التي تقيمها الهيئة فوق ساكنيها يعني في نظره فداحة وكارثة وغيبة ضمائر.. ويبقى الإيلام الأشد الذي يلف عنقه عقب كل عملية مقاولات يتلاعب بها القائمون عليها من المحترفين رؤسائه.

الصمت الذي لا يدفع الشر جبن..

دفتر خدمة صاحبنا يشهد بأنه أتقى وأكفأ من أن يتولى مخازن الهيئة.. حسنا لشهادة القدوة الحسنة؟..

لعله طُعم الحواة شاء أن ينضم لقافلتهم أو تخلف، وقع على المستندان أو وقع بدلا عنه .. كم من مواد البناء تلاعب بها الكبار في غيبته .. قبضوا الثمن ووزعوا الفتات منه على الصغار والحرافيش.. الاحتيال في تنفيذ جرائم القوت بات لها منفذون محترفون يتلونون.. وصاحبنا كعصا ضرير يتحسس قوت يومه لا حول له ولا قوة سوى الثرثرة التي لا طائل من ورائها غير الامتهان من موظفيه .

أحس (صابر أفندي) إن شهادته القديمة كقدم تصرفاته هي نعمة تفوق نقمة بطالة الشهادات العليا والمؤهلات الأخرى الـــ..؟ . بينما نظائرها تصعد بهم إلى أبراج إدارة الهيئة..ولربما يفرض

عليه أيضا- لا قدر الله ليتعامل مع سارقي امن الناس.. رضخ في مكانه مستسلما لليأس وقلة الحيلة راضيا بالمقسوم تطحنه أعباء أسرته الملحة بمطالب أسرته المتزايدة.. الحسنة اليتيمة أنه أسقط تمرده على الورق شعرا.. تعسا للأسرى القابعين في شرنقة الذات حتى لو غفلت مرارة العفن في أسرار حروف لا ترى النور أو تبشر بحلاوة الاشراق والنقاء.. وسحقا للذين يجدفون مع تيار الانحراف إلى غاية منتهاه.

على جانب آخر كان سيف النقيب (ثروت الكفراوي) خطيب "أمل" – كبرت بنات صاحبنا- مسلطا في وجهها ينزل كنصل حاد بين الحين والآخر على كاهل أبيها (صابر أفندي) إذا لم يف بالشقة واحتياجات الجهاز المتفق عليه..





مرت الأعوام الستة منذ عقد القران عصيبة يكسوها الطمع والهموم المذلة والضباب .. انعكست هذه الليالي السوداء داخل الهيئة نقشت على قسمات صاحبنا الصابر معاني القهر والحيره، نذير الطلاق دون عرس يؤرقه فيلهب ظهره .. المال قليل في يده كثير في أيدي العابثين بمخازنه وأوراقه.. الحساب السنوي على الدوام تمام .. زفاف "أمل وثروت" حلم طال تفسيره .. أصعب شيء عجز الرجل عن تحمل مسئولياته.. أي عجز .. العين بصيرة والأيد قصيرة.. آه .. ليس كل ما يتمناه المرء يدركه.. المرض يداهمه بقسوة... يسوقه سوقا إلى المنزل يتجرع الألم عنيفا ومزدوجا.. وكأن أنفاس الليل المتحضر توقظ تباشير الفجر الوليد على موظفي إدارته منذ انقطع عنهم.. تفضوا عن أهدابهم أحلام الليل الفائت وشعروا بجاذبية لا يفهمونها تجاه من سيحل محل (صابر أفندي) مديرهم المريض.

المودة رسالة الحياة في الأرض.. أحبب تر ما لا يُرى.. هكذا عاش صاحبنا قبل مرضه الأخير يرضع الزملاء من أثداء العفة ويشربهم عصائر الحب والتفاني والأمانة.. لكن قلوبهم

القاتمة كسواد القار لم تتحلل من الأطماع فلم يزره أحد.. تحولوا يسقطون كالفراش أمام أول ضوء يتزين بأبهاء الحرام.. لا فائدة.. تبا لحياة لا مجال فيها لشريف.

كانت"أمل" قد شربت رحيق عصامية والدها التي أثمرت إيمانا عميقا صدت به موجات غزو خطيبها (النقيب ثروت) المتعجل إتمام الزواج .. كان النصر حليفها إلى أن جاء أصعب قرار بعد أشد حوار بينهما وأغربه:

- سنين انتظار الشقة طالت.. طالت قوي؟..

- الصبر طيب يا ثروت.

- لا طيب ولا خبيث.. حبالكم طويلة.. طويلة.

- الأمل..الأمل.. أحب أعرف كان مثالية أبوك طريقها مسدود مع المقاولين.

....

- و.. وأنت؟ .. أحب أعرفك أن مواد البناء تحت أمري.. عهدتي.. ممكن تبني شقه .. ما رأيك؟

- جريمتك مصيرها رصاص الحكم العسكري لو حاولت حتى أ....

....

....

أبغض الحلال عند الله الطلاق . لم يهتز إيمان "أمل " لحظة واحدة.. حسنا جدا.. وقفت بين تلاميذها في فناء المدرسة التي تعمل بها، أميرة تنتصر على ظروف طلاقها المتوقع من (ثروت) كان ذبولها يعلن الانهزامية من الخارج ويلعن الاستسلام من الداخل .. تقاوم ماجد على ساحة أسرتها المكدودة في عائلها.. إن مقاومتها في الجولة الأخيرة اعتراف كامل بأنها كانت تحبه وفي لحظة انفعال مرير ضاع الحب.

وراح الفارس.

اتكأ المدير الذي تولى إدارة مكتب (صابر أفندي) على كرسي رئيس الإدارة وفجأة دق بكلتا يديه فوق سطح البللور أمامه .. هشمه لتوه.. جلس متكئا لبضع دقائق لا يرفع رأسه إلا خلسة.. أصحاب الساعات الذهبية لا يطيقون العيش داخل غرف الحفظ البالية.. رائحة لفائف الفلافل تزكم الأنوف...

خرج في عصبية لا يلوي على شيء سوى غمغمة مبتورة تقول:

أنا.. أنا أعيش في منفى وسط حالة من الـــ...؟ أناس تبني وأناس تهدم.. ظل المسطح الزجاجي لمكتب صاحبنا قبل مرضه نظيفا كصاحبه جزء من كيانه، ثمة علاقة ربطتهما حتى جاءت سقطه مرضه فريسة لزمرة أشياء اجتمعت عليه وسرت في دموعه فتوزع عقله بين الأوجاع والإبداع.

إن رجلا على مشارف الستين ربيعا يقبض على الجمر ويبث أنينه إلى السطر الشعري ، دونما ضجيج أو شهرة.. لجدير حقا بالإعجاب .. ولكن..؟

وبمجرد انصراف المدير الجديد تنفست أسرة المكتب الصعداء، واتجه أحدهم إلى تحت اللوح البلوري المكسور، ساحبا ورقة الهوية الشعرية المشهورة.. آية شعار صاحبنا .. اقتبسها من أحد الشعراء [1] منشدا:

.. "اسمي صابر، عمري سنوات الصبار.. جهلت بدايتها أو حتى كيف تسافر .. بلدي مصر القرية والموال الساخر..

---

[1] - للشاعر، أ.د. صابر عبد الدايم ، شاعر وأستاذ جامعي مصري مرموق.

والمهنة شاعر هواياتي فك الأحجبة وهدم الأسوار.. والبحث عن الخصب المتواري خلف الأمطار .. وقراءة ما خلف الأعين من أسرار.. والتنقيب بصحراء النفس عن الآبار".
غرق ثلاثتهم في لحظات قصيرة تجمع بين الضحك والتهكم.
يا للنذالة.......؟
قطع أحدهم موجة الاستغراق العارمة محاورا وقائلا:

- اللهم اجعله خيرا؟.. أجازة (صابر أفندي) طالت قوي ..

- يمكن آخر أجازة قبل ما يودع الدنيا..؟

- وتقول عاش الشاعر .. مات الشاعر!!

- يا جماعة المرض ذل.. حرام عليكم.. البلوى كتمت أنفاسه في المنزل، رقد صاحبنا يتجرع كئوس المرض والحزن يحلم بإصلاح أحوال ابنته المطلقة، كأنما جاءت رقدته تلك ليكتوي بنار الألم مضاعفا، تكفيرا عن غفلته وصمته الطويل.

- إن قلبه الرائق لا يصلح لينبض بالخير وحوله أجساد من البشر تنخر فيها ديدان تواقة للنهب .. نهمة

للسلب....خواطر كهذه قال بها صاحبنا في صمت يتحول إلى دموع خرساء... بينما مضت الابنة المعذبة تغطيه من دفء حنانها ما يعوضه عن فقد أمها وعن فرط مأساتها هي.

- حمل البريد رسالة خطية مصدرها المهندسة" دعاء" الابنة الصغرى لصاحبنا وزوجها المهندس " أيمن" مضمونها دعوة من بعيد إلى شمال سيناء؟ حيث أرض بكر تجود بالخير لكل من يقدم قطرة عرق تروي شجرة طاهرة لتطرح ألف ألف ثمرة.

قالت في سطور من الرسالة (....................):
وبعد فقد اتجهنا بالطائرة من مكة المكرمة ووصلنا بسلامة الله إلى العريش قاصدين العمل والإقامة الدائمين هنا فالحياة بالقرب من الساحل وحول عيدان النخيل سوف تعيدك سريعا إلى موفور العافية، أما أنت يا "أمل" فمدرسة العريش النموذجية بانتظارك جديرة بك لتعليم الجيل الطالع من صغار البدو..
سالت دموع "أمل" ساخنة وغالية بينما صرخ الأب الصابر بملء فيه أحمدك يا رب ... وداخل العربة المتجهة بهما إلى

أرض القمر ومعبر النبوات والأمجاد ، فوجئت "أمل" بخبر يطير على السنة الركاب .. لم تصدقه وكأنها في حلم مزعج.. جذبت من أحد الركاب في غير وعي جريدة الأخبار حيث تصدر صفحة الحوادث المصورة تعليق مثير يقول:

"أصدرت المحكمة العسكرية العليا حكما بالسجن المؤبد على النقيب ثروت الكفراوي ومساعديه بتهمة التلاعب في مواد البناء الخاصة بالجيش، .. شهقت"أمل" شهقة طويلة مفعمة باللوعة والسكينة بينما راح بصرها يقرأ في صفحة السماء خاتمة المشهد المهيب .. في اللحظة التي تنهد فيها الأب تنهيدة عميقة ولسان حاله يكاد يزغرد : عليكم الدور يا عصابة الخسران".

***

وداع في موسم الحصاد ..

احذر

إن الأبدية تقترب، أنشودة تطهيرية قال بها فلاح مصر الفصيح.. حملتها كغيرها متون الأهرام..ربما لفائف البرديات أيضا.. كلاهما نفحات نطقها التاريخ القديم ربما تنفع في يوم لابد وأنه آت...

ليل الصيف الأقمر الحالم، تعكس أضواءه أنوار مدينتي الصغيرة.. تتباين في شوارعها الملتوية وحاراتها الرثة الأصداء والأنداء، تعزف الحان الفوضى والجلبة..من الصعب

أن تجد متعة في القراءة.. بات أمرها كله رخيصا.. ذبح على عيبات سلم المدينة.. ضيق الأمكنة وفساد نتائج العصر المجنون يدفعان بين الحين والآخر إلى محاربة الهرب.. الفرار يجيء متنوعا.. فراري مساء اليوم كان لركن في أعلى البيت المتهالك الذي أسكنه.. حسنا الأشتات من خواطري الحيرة تتجمع عند نقطة التخيل اللامحدود.. صفحات قلبها فكري في المعاني المفقودة .. الباقية أبدا سطرت نقوشا من حب وقيما من طهر.. نقلت عيناي مشهدا مثيرا وعفويا من داخل إحدى قاعات (الصدق) الاوزيرية الشهيرة .. في محكمة أوزوريس استرجعت هذه الاعترافات:

في مكان الصدق هذا لم آت ذنبا.. ولم اعرف أي خطيئة أو أي شيء خبيث..

- ولم اغتصب لبنا أو خبزا من فم طفل..ولم ارتكب الزنا قط..و....

في محاكم الصدق تلك حمل ضمير الإنسان الأول نبوءة عشق الحق ومقت الدنس، ثم ماذا حدث؟.. وصل الركب إلى زمن كثرت أمراضه وسالت غزيرة دماء ضحاياه.. حرصت

خيالاتي على وقع رطوبة مبعثها نسمات الليل البارد .. لم ادر إلا وقدماي تجراني جرا إلى غرفة نومي المهملة، تكومت في فراشي.. دقات ساعات الحائط تعلن بإيقاعها الممل منتصف الليل، بينما أبواق عديدة من أجهزة التليفزيون المجاورة تزعق في ليل السكون مختتمة برامجها على صوت قارئ السورة:
"اقترب للناس حسابهم"... مزاميري المبعثرة..وتراتيلي الحيرى غابتا في عناق أخاذ منصتة للآيات المحكمات. الهدوء قاتل ورتيب.. وغلالة سوداء تملأ الغرفة.. دوامات الأرق وسحابات القلق تطحن رأسي طحنا .. نهضت لأشعل أنوار الغرفة من جديد.. لعبة الخوف تبدو غير مطمئنة .. عاودني الإغراق في اللاشيء تأتي الرهبة ماكرة ومريبة حدقت النظر مليا لأتحسس صفحات من كتاب الموتى مخاوفي للبحث في تفصيلاته المثيرة تسبق رغبتي لسماع موسيقى هادئة.. ساعات الليل تمتد وتدنو من تباشير فجر صبح جديد قادم ولا نوم .. يا للهول من خوف زاده الأرق ..مشاهد التحليق فوق أفاق واقع مدينتي المتحضرة تكاد تصيبني باليأس وترميني في أحضان الإحباط.. العفن يزكم الأنوف ..يستشري كإخطبوط جبار أحكم قبضته عند كل شيء.. العفن يتسلل إلى الصناديق المعمارية التي أسميناها شفقا

لسكني وعيش الحياة.. ليست العفونة فيها فحسب وإنما في من يعمرها أو يخربها وفق هواه.. تخيلات على هذا المنوال تتشابك مع موروث الماضي الماثل في جوف أحاسيسي.. ظواهر الواقع تتردى في الصياغ .. تتواصل الأحداث على السطح.. القيم وسط الظلام مرتعشة.. بصيص من شعاع يمسك بتلابيب الأخلاق .. العبث.. الثواب والعقاب.. فجأة يأتيني من دوار عنيد يحثني استجمع قواي الحائرة، لأقرأ ما دامت لعبة الخوف متزايدة.. طرأ على ساحة خيالي لعبة إثارة جدية نقشت بين دفتي كتاب الموتى".. تحسست بشاعة أسطورة قديمة مفزعة منه تقول:" إن إله الموت هو أول إنسان يتزوج من أمه وأخته"!! وارتعشت فرائضي .. سقط جرم الأسطورة كنصل حاد لف عنقي بين ثنايا الأسطورة ماتت فكرة نومي..تذكرت من نسيج الواقع أشتاتا مثلها.. يا لسفه الأوهام عندما نصطدم بالواقع.. مدينتي تشهد وقائع أقسى من الأسطورة المرة، بل أدهى منها وأمر.. حكاية "نجوان الغزالي" مثلا.. حديث المدينة ليل نهار .. بعضي يكلم بعضي عنها.. لا فائدة.. لأحاول النوم.. ثانيا.. إنه الكون.. كون نظمه ودبر أمره خلاق عظيم.. خمدت أنفاسي في اللحظة التي استوت ناضجة جذور أفكاري

على سوق خيالاتي بينما هاتف من الخارج راح يترنم بآيات من قرآن الفجر الجديد.

***

في عصر الغد وعلى المقهى المعتاد كان الملتقى الأسبوعي لشلة الأصدقاء من شباب الحي.. الحديث الكلامي يتفرع وأطرافه تطول .. زمام الحوار تتناقله الألسنة أشبه بأغنيات مبتورة.. الأشتات تجمعها خواطر مشتركة عمادها يتركز حول لعبة العاطفة.. تخف حدة الحوار وتهدأ معزوفة الدوران وما تلبث أن تشتد ثانيا.. الاهتزاز يأتي دوما عندما نتزود بالقيل والقال.. آه منهما.. الآفة المحببة.. في دهاء خاطبني أحدهم طبعا والبريق يلمع في عينيه..

- أخبار نجوان أيه؟..

- لها الله يا سيدي ودعائي لها، أما آمها فلها ..جهنم.

- اتق الله . إن الجنة تحت أقدام الأمهات.

- صدق الرسولﷺ : لكن الأمومة – هنا – أنانية وابتزاز.
- طبع يا سي أشرف .. أنت مع البنت وإلا أمها ..أم
وبشغف فضولي بالغ نهض من مقعده أكثرنا هدوءا ليفض الحوار في أدب جم قائلا:
- لنترك هذا الموضوع المتشابك.. سبحان من يعلم السر وأخفى.

....

....

وضع الصبي كوب الشاي الأسود وراح من فوره يتابع قفزاته بين رواد المقهى.. تعلو صيحاته التقليدية بينهم.. تنقطع أوتار الأصداء والأنداء في لجة الجدل الدائر .. والثرثرة تطارد أفكاره.. من نقطة البدء أعود.. البذرة لم تكن صالحة للغرس استطالت فقط من جوف التربة جذور شيطانية نبشت في الماضي فأنبتت على سطح الأرض سيقانا جديدة وأغصانا وليدة ..لب حديث المدينة من المحتم أن يفتش عن كل هذا قبل أن يحكم حكمه الظالم، نظرات العيون ترمي الحدث بفنون

الاتهامات .. لا .. كن شجاعا وشهما في مواجهة الدعاوى الزائفة المنتشرة بين دروب المدينة ..اجل كانت نجوان غاية أمالي قبل أعوام وحدث ما حدث .. لكنها الآن جارتي الأولى كما هي حلمي الأول.. الذكريات تتراءى باهتة كلون الدخان الذي غطى ردهات المقهى.. بوابات الندم تفتح وتغلق من أمامي .. أنا سبب جحيم دنياها.. قلبي يحدثني .. لما لا تتزوجها بعد أن قربت منك وتوثقت صلاتك بها؟..

- أنسيت يوم أتت من الإسكندرية إلى الزقازيق لتعيش في كنف أمها داخل إحدى البيوت القديمة في قلب حارة محمد خميس الشعبية ؟.. كان أجمل صباح طلعت فيه الشمس على المدينة لحظة أن قالت لي:

- خلاص يا أشرف.. بابا وافق أعيش مع ماما..الحمد لله.. ربنا يقرب البعيد.. تذكرت يومئذ عينيها الضاحكتين فرط نشوة الفرحة.. بدت كملاك يعطر الوجود بشذاه.. العود قد استقام واستبان أناقته.. يبرز مفاتنها خصر طري يعلوه صدر ناهد ثائر. أما عن شعرها فقد انهدل على كتفيها في سواد لامع.. في

براءة رسمت بسمة صافية وديعة فازدانت هذه الخميلة، فحلاوة قدها بات أكسيرا للحياة .. لم أتفحص الأصل كما يقال ..لأن جمالها الآسر ورقة أنوثتها الحالمة جاء طاغيا عىى كل ذلك.. فقط تأثرت لحيرة نجوان وتوزعها بين أب ودود حرمتها منه الأقدار وعناد الأم الجامحة اللعوب ....

....

....

فجأة..قطع شريط ذكرياتي على أمر جلل جاء به الناعي .. قفزت معه إلى عرض الطريق .. أنفاسي تعلو وتهبط.. أقدامي تنقلني بتثاقل شديد إلى الحارة إياها.. لسان الحال يقول:

- بيومي أفندي مات.. المسكينة الآن نجوان.. البقاء لله.

- صعدت تنهدات وزفرات دموع حارة.. ظهرت عميقة ومؤثرة من نجوان .. الغريب هنا أنها فقدته وهو الأنيس العطوف وليس زوج أمها الـــ.. كم هي مسكينة.. في عام واحد تفقد الأب هناك وزوج الأم هنا .. الأحداث تطول والأيام تمضي .. والسيقان عند هذا الحد كانت قد بلغت استوائها



والأغصان قد تشابكت لتبدأ شمس الأحداث تصنع الثمر.. لنر في المستنقعات الأسنة تنبت شجيرات صفراء تتلون بالخضرة عند الجفاف.. الجذور هشة ومرقدها رديء.. الثمار عقيمة.. قد يبز أحد العيدان الشاذة فتكتب له حياة التميز والاخضرار ذلك ما حدث بداخل الصندوق المعماري إياه القابع في حارة خميس الشعبية.. ضاق الحي ذرعا بمسلك المعلمة (هانم الشهواني)

.. صاحبتنا أم جوان و.. مركز دائرة الأحداث.. سكنى قبالة شقة المعلمة جعلت مني عيونا تحرس ابنتها نجوان وترقب ما يجري داخلها وبعيدا عن حبيبتي من – عفن أو غموض– . سكان الحارة وأهل الحارة بالطبع يجهلون طلاقها المبكر من أب نجوان .. لفظت الإسكندرية المعلِمة لأن البحر هناك طاهر لا يعرف قهقهات الدنس .. تكرر طلاقها ثانية من ريفي شهم يعشق التقاليد وينبذ الألاعيب، يعرف الناس فقط أن المرحوم "بيومي أفندي" هو السور الهش الذي أحاط بها وهي تعرض ألعابها النكراء داخله.. لم تهتم بموته.. مضت في غواياتها تغري وتكيد كل من يقع في شباكها .. حتى ملاكها الرقيق نجوان لم تسلم منها.. أصحيح كما يقول المثل:" يخلق من ظهر

الفاسد عالم...؟".. سنوات عمر المعلمة يرصدها التقويم بأربعة وأربعين عاما لكنها تبدو كعروس كعوب في العشرين .. قال عنها أحد الأصدقاء ذات يوم:

- أم أربعة وأربعين جارتك يا سيدي.. تطلبني لألعب معها الورق .. ولد وبنت؟..و..

تسأول لم أهتم به.. فكم شاهدتها بعيني رأسي ذات مرة تبيع في سوق السمك وتدخن في آن واحد.. بينما تعود صعلوك متطفل مشاركها التدخين .. و.. بالقطع حاولت أتبين سر هذا الجموح وذلك الانفلات دون جدوى.. باءت المحاولات بالبوار.. مضت تأسر بأنوثتها الطاغية كل من يلحظها. ثورة جسدها الفارع تبدو في خطواتها اللعوب.. صدى الإثارة يتراءى أكثر على إيقاع رنات حلقات الذهب العريضة التي غضت سمرت ساعديها .. بريق المعدن الأصفر الذي تتزين به نصب شباكا وقع داخلها طامعون كثيرون أما عن غمزاتها المريبة في مجالس أنسها المعتادة فقد كانت صيدا سهلا لأنواع عديدة من الرجال .. الذئاب البشرية.. تخيرت المعلمة أقوى الرجال الذئاب .. روضته بعد طول انتفاء .. كان(مرعي الدنف) أوتي

بسطة في الجسم وخفة في العقل وثقلا في الجيب مما سهل من مهمة ترويضه ليمارس نزواته الحقيرة معها قالت الشواهد أن لعاب مرعي قد سالت مرارا حول المستنقع الآسن .. أما نجوان.. زهرتنا الكسيرة فقد لفها صمت رهيب.. الكآبة تكاد تقتلها.. المأساة تدور حولها أشبه بلوحة سوداوية ماثلة!!..

طوال الأعوام الثلاثة الأخيرة المريرة التي عاشتها نجوان في حارة خميس الشعبية اكتفت خلالها بأن ترقب الإثم حواليها، بينما نجحت أمها في أن تسلبها إرادتها.. الوعود عديدة والأمومة بهذه الصورة آمرة، فما عليها إلا الصمت والانقياد.. حسنا.. بلغ الانقياد مداه عندما كانت تقدم الأم ابنتها نجوان في كل المناسبات أو الأماكن عديدة على أنها أختها وليست ابنتها . يا لهوان الأمومة !! لم تعد النماذج الموروثة لتضحيات نسوة مدينتي المثل الأعلى..

موعد الحصاد يقترب.. الثمار علقم.. حملت نافذتي رسالة خطية صغيرة من نجوان ملخصها يقول إن المعلمة أمها سارعت وعقدت قرانها بالإكراه على (مرعي الدنف) .. سيأتي ليقيم معها بعد ما يبيع شقته.. أي ذئب غيره يقبل هذا التورط.. نجوان تمقته وهي تحمل إليه عداوة شديدة .. كيف تكون

زوجته، بينما الأم هي الأخرى وفي مخدعه.. الشهور تمضي والأحداث تقطع أشواطا من عمر الزمن .. الحديث عن جرائم المعلمة وقهرها لنجوان يطول ويقصر على الألسنة .. هذا يتزايد وذلك مشفق وكثيرون ناقمون.. صمت نجوان يشعل لهب المأساة .. أعلى الزهرة يميل.. تبدأ في التساقط والذبول ..

الجسد الرقيق يتداعى وسط الإثم والقهر.

....

في صباح اليوم، طرق الباب طرقا مزعجا.. تطرق إلى مسامعي في ذات اللحظة تأوهات وصرخات نجوان.. فتحت الباب لأجد هانم الشهواني.. ترسم صورة مزيفة أمام عيني.. قالت في جملة شاحبة:

أنس الماضي.. نجوان محتاجة لك.. أطباء المستشفى في انتظارك الآن......و......

تجمع فريق من الأطباء حول نجوان .. كل يبحث الحالة الغريبة في تخصصه.. تصورني أحدهم زوجها، قال لي في مرارة:

سيادتك الزوج....؟

لم أفهم قصده.

أخصائي النساء يلقي على الجميع نظرة غريبة .. الحالة تزداد سوءا.. أمرني بالخروج .. غرفة العمليات تعد.. طبيب التخدير يخرج إلى الصالة .. كيف أتبعه..رأيت المعلمة تتهامس مع الدنف .. في عيونهما شاهدت اللامبالاة، قلت لهما:

- نجوان ولادتها قيصرية.. ربنا معاها...

ردا في سخرية:

- مش معقول ولاده.... يا ربي هل البكر تلد؟...

مضت الأم ترمي بالمفاجأت وتتهامس مع الدنف: أيه الحكاية؟..

زلزال مدمر يعصف بالواقع المرير.. سنة كاملة أو يزيد مضى على زواجها وما زالت نجوان بكرا.. إن الأحشاء المنتفخة تشهد بذلك.. ستلد بجراحة الأطباء بعد قليل .. كذب.. قطع جدار الصمت كبير الأطباء الذي خرج لتوه من غرفة العمليات ليعلن الكارثة:

البقية في حياتكم.. بنتكم ماتت.. الورم الخبيث سمم جوفها المتكور .. كان أكبر من جسمها النحيل..

أنسحب العاشقان الآثمان ليعدا مأتم الخطيئة، تركتهم ودلفت إلى داخل غرفة العمليات.. ألقي نظرة وداع على جثة الملاك

الهامدة .. تساقطت دموعي، بللت شعرها الفاحم الندي.. ربت على كتفي طبيب النساء قائلا:

- شد حيلك .. الآنسة في رحاب الله.

- آنسة!! يا ولا الـــ..

***

ليل

الشتاء بارد وطويل، جليد لا يذوب.. المسافة بين ظلمة الليل وإشراقة الفجر تمضي كشريط الذكريات .. الألم يشقيني والأرق يعذبني كل مساء .. الصمت المطبق يغلف غرفة نومي المهملة بغلالات من اللوعة والأسى والعذاب...
يقظتي في جوف الليل البعيد حول فراشي قاتلة.. عيناي المتعبتان تتسعان وتضيقان في ثورة حبيسه مع العقل .. بالطبع

نتائج معركة هذا الصراع الممل خاسرة ، أرض الاقتتال مليئة بالمفاجآت والمتناقضات، العقل والعاطفة، التسامح والغيرة.. الحب والحقد .. والجد والعبث.. ساحة المعركة تنتقل بسرعة هائلة تفوق سرعة المركبات القمرية من أوردة القلب الذبيح إلى خلايا المخ المتهالك، الصراع هائج ومضطرب.. دورة القلق مضطردة .. الأفكار حيرى.. الهواجس قلقة..الرؤية مهتزة.. الصمت المخيف يفزعني ..قطرات الماء المنسابة من الصنبور المجاور للغرفة تدق أسماعي وتثير الجلبة في قلب الليل، انتبه أكثر وأكثر..

أعود ثانية لأغوص في أعماق محيطات الغربة.. الغربة تكتم أنفاسي كأنما قصة عمري تشهد مراسيم نهايتها .. الفضيلة تصل بخطى متثاقلة إلى منصة الإعدام ياللعجب!! قد التقت مع الرزيلة في مشاهد غريبة لم أتوقعها .. رغما عني جاء اليوم الأغبر .. دعني أعبر بك طرقات وشطآن يومي هذا العمر لحظة .. اللذة متعة .. الأمل حياة.. الحب سعادة.. حوائي كانت كذلك .. عامان وأكثر والهوى نعيشه معا كأغنية حلوة لكل الأعوام، بالشعور المرهف جاءت همساتها الحنون..لمساتي

الملتاعة .. تطلعاتها الكبار .. ثم أمانينا الباسمة حتى صار الحب في عيوننا يبتسم.

بدأت (سلوى) ترسم بنفسها خطوطا واثقة في روضة عمرنا المورقة .. سنة أو اثنين وتكمل العقد الثاني وذكاؤها اللماح إلى أن تكتب بخط يدها اعترافات الهوى فوق سطور أجندتي الخاصة بذلك ترجمت بشكل صادق وبريء أحاسيس فؤادها البكر.. الحق أقول، أطمأن قلبي إليها فعشت لهذا الميلاد السعيد ارويه، أنميه، وأزرع نبت الإخلاص والوفاء في أرضه الجديدة.. سياج آخر أحاط بتلك الأرض ألا وهو الاتفاق المبدئي المعلن بين أسيرتنا يبارك جهرا رغبة الفارس المشتاق للاقتران بالغزال الرشيق.

اعتدت اللقاء وسلوى كل مساء تقريبا داخل غرفة بسيطة بمنزل متواضع تمتلكه أسرتها في أحد أطراف المدينة، المصادفة فقط جعلت إقامتي بالقرب من مسكنها: ازدادت بعد ذلك زياراتي حجتي أمامهم رعاية شئون سلوى المدرسية لا ضرر في ذلك.... أصبحت بالقرب منها فضلا عن قرابتها لي .. كان يطيب لي مداومة رؤياها حتى لو امتدت أعمال الوظيفية إلى حيث أبواب المساء.. اهتمت بي .. بدأت ارتفع معها إلى آفاق

الهوى.. كان يحلو لها هذا.. انفردت وإياها مرارا وتباعا، ساعة، ساعتين، ثلاث.. لم تجرني يوما الغزيرة المستعرة إلى الرغبة اللاهفة أو الطيش المحموم .. ظلت شيمتي، وستكون تدور حول المقولة المشهورة:

من الذي كلما تسامى.. فيتلظى بالنجوم.

ثم.. ثم ماذا بعد؟.. هل أظل أشعر بالحسرة والمرارة كلما توافق تواجدنا معا بحجة الدرس. إن الذي يغار يتعذب؟!!.

فقد دخل الشك في قلبي.. إنه يفطر سما زعافا فالحب مهد المرارة حينما يولد معه الشك بحيث لا يجوز للذين يستطيعون جعل الحياة عذبة أن يقطروا فيها سما.

تملكني الأرق واحتواني الوجوم .. من حقي التساؤل ن سر انفراده بها؟.. إن له حيلا وأساليب وطرقا ملتوية بغية الوصول إلى جسدها المثير قبل قلبها لحظات الضعف كثرت.. الرغبة قويت.. تواعد التراشق بالنظرات الطويلة الحالمة كلما التقيا.. وما أكثر تلك اللقاءات المشحونة بالأنوثة الطاغية الممتزجة بالاشتهاء والخوف.. والخوف ؟ أي خوف.. حدثت سلوى عما يدور بينها وبينه ذات مساء، أجابتني باقتضاب: عادل صاحبنا، جارنا، معرفة قديمة قوي.. كبر بيننا نشأ معنا وأرجوك تثق

بكلامي إذا صدقت كلامها فلماذا تعني نظراتهما النكراء؟ أهي إخوة وصداقة بين فتى وفتاة؟! لا ومليون لا.. اعتقادي راسخ في عدم توافق أدنى علاقة بينهما.. العلاقة الوحيدة بين الحطب والنار هي الاشتعال والحريق ثم الرماد .

أعود وأهمس في رفق وحنان: سلوى.. حدثيني بصراحة أكثر.. دعي حكاية أنه.. أخ.. صاحبنا.. جارنا.

قالت لي : ليتها ما كذبت: عادل بيرد الجميل .. التربية المشتركة بس يا مدحت. صحت فيها بصوت تغلفه السخرية وهل الإيماءة والإشارة والهمس واللمس الذي أشهده أهو أنواع من رد الجميل يا سلوى ؟!..

ثارت وهاجت واختلفنا إلى حين.

مر أسبوع .. مضى شهران وأكثر اتضح أن ذلك الصديق المتردد على نفس المنزل وفي ذات مواعيد حضوري حجته الظاهرية التدريس الخصوصي لمحبوبتي أيضا يبدو من أول وهلة: مدلل.. ناعم.. رقيق.. مريب.. زائغ كثعلب يعمل بشهادة تكميلية متوسطة .. أنيق في تكلف، يدخن في شراهة.. بمضي الأيام وتعدد اللقاءات لمحت في نظراته أمرا مريبا.. دهاء وشقاوة ويختلس مع سلوى النظرات.. يتلون في همس الكلمات

.. يتفنن في تبادل وتوجيه الإيماءات معها بالطبع بدأت كأنما يحلو لها شراك حب جديد راحت تنسج خيوطه مع الثعلب المدلل.. ذئب جديد أتى ينهش في روضتنا الهانئة.. لتذهب، إلى عالم النسيان القيم النبيلة التي أشهرتها باستمرار في وجهها .. حقا أصبحت غيورا.. جعلتني منسيا .. احتياطيا إن أصدق المراد.

ثم انقضت فترة ليست قصيرة لم استطع حبس غيرتي وكبت ثورة مشاعري الذبيحة .. حركات غير المنضبطة كلماته المعسولة .. تصيبني بالهذيان.

ذات مساء أذابت سلوى بعض همومي هاتفة: عادل يبحث مع أمه العجوز عن عروس.. بنت الحلال ليست أنا.. خلاص ارتاح بالك..................

....

المودة تزداد بيني وبين أسرتها كأمر طبيعي الهوة تتسع بيني وبين صديق الأسرة الثعلب.. سلوى حديث عقلها غير ما يعتمل في قلبها .. أردت أن أبوح لوالدها عن عدم ارتياحي من تصرفات عادل، صارحتهم بشجاعة:

- أهو خطيب لسلوى .. أو في طريقه لذلك؟

جاءتني إجابتهم جوفاء: أبدا عادل أخوها بس يا مدحت تجددت الأمسيات وطابت أوقات اللقاء: مضت ليال وانقضت شهور وحلم التخرج في الطب أمل الأسرة الفقيرة العريض يبدو جليا.. حسنا.. سلوى هي الرجاء في تحقيق هذه الأمنية ولنر.. ماذا يخبئ القدر يا ترى ؟.. لنر.. لنر، فالساحة يعترك داخلها فارسان مدحت وعادل وغزالنا الرشيق (الفاتن) بنفس التألق والعناد والغرور بداء الكبرياء والدهاء: سلوى تبهر وتسحر أعين الفارسين المتصارعين. تتلوى وتتثنى والفارس القديم النبيل يتسامح كطبع المحبين.. التعلب المدلل تزوغ عيناه ونظراته تشغل مفاتنها المثيرة، وأنا أراقبه بتحفظ شديد رغم كرهي له الأشد لقد جعل الرغبة فيها نارا مشتعلة .. لم لا.. فجسدها قوام آخاذ .. خصرها.. جيدها.. الحمرة في وجنتيها .. حديث السحر في عينيها .. شعرها رقائق ذهبية تتدلى مثل الموج الثائر، خصلات منه تنسدل تهفهف كأنما تعبث في دلال خلف نافذة الصدر المتكور المثير ثم عاطفتها الجديدة يا ترى هل هي نزوة عارضة أو نشوة ترجوها مع ثعلبها الجديد؟.. الحب لا يعرف الأنانية فأصبحت هي كذلك ياللعجب؟



يحترق قلبي من نار الغيرة والقهر .. أجهزة الإحساس المرهفة الذواقة عندي أصبحت تلتقط أولا بأول إشارات بعدها عني.. محطات المشاعر المبكرة لدي ترصد خطواتها المدروسة بوعي النساء وكيدهن العظيم تحولت عني إليه واقتربت منه.. بدأت تنساق بلا عقل إلى التورط الإثم مع الفارس الثعلب لم تكتف سلوى بالمخدر اللذيذ الذي ملأ كيانها من جرعات الهوى وكئوس العشق الدائرة بينهما في عقر دارها، أو لقاءات خارجة.

يا للهول !!.. أضحت تتردد على مسكنه ، يتواعدون المرة تلو المرة ..هما والشيطان .. حيث حرية وإباحية أكثر يظللهما تواطؤ غير معلن من أمه الأرملة العجوز.

من الضروري الآن أن أكون أكثر وعيا وحرصا، خريطة علاقتي بسلوى لابد من إعادة رسمها وصياغتها وفق المناخ العاطفي الجديد، فقد تشابكت الأمور وتعقدت.. تحبه .. وتعشقه.. تذوب فيه.. حقا عادل من النوع الجريء الذي يستطيع الوصول بشتى الطرق إلى غزو صحراء المرأة العميقة الممتدة، ويبدو أنها تبارك له تملك جسدها قبل عقلها .. وأنا أريدها ملكة متوجة على ناصية عرش قلبي الملتاع رغم الجرح

وبرغم التورط صوب السقوط .. تحلو وتروق لي بجمالها الخلاب .. لا يهمني هنا سوى التمسك بأهداب الشرف أو برصيد من الفضيلة. في زماننا المضطرب تتضح أنانية المنفعة كستار مضلل في أسفار الحياة.. أريدها بحدتها وثورتها وعنادها، كم يسعدني مراوغتها في الانفلات والهروب، إيماءاتها المرتفعة مثل نيران تستعذب دفء، حرارتها وتود أن تلسعك.. شوقي ولهفي بحرين زاخرين بالحنان والهيام والعذاب.. ثم لو خيرت الآن رغم كل الذي حدث أن أعيش خمسين سنة أخرى أو أكثر أو أن تكون هاتان العينان الخضروان وهذا الفم الحالم الذي يتفتق منه الهوس والعشق لي وتحت تصرفي لحظة واحدة ، لكنت أرجع قطعا هذه اللحظة النادرة المثيرة من دنيا حياتي .. وما حياتنا إلا لحظات كتلك.. وبعد فأسرتها في النهاية وفوق كل حساب ترجوها متعلمة، تستثمرها كبقرة حلوب.. في سبيل التعليم قد يقتل الحب إلى حين.

ازدادت الأمور تعقيدا أصبح جو هذا البيت المسالم مسرحا لأداء دور هزلي يضرب القيم النبيلة بعصا النفاق والخداع ليس هناك من فوق خشبة المسرح سوى المرارة..

الفتنة.. اللاحب.. سلوى تقوم بصنع كل هذه الأدوار بل والإخراج الجيد لها باتت الأدوار مكشوفة لي.. والغامضة عن أسرتها بتفصيلاتها المثيرة.

بدأ ضميري يتحد وعقلي يتصديان لمهمة انتشال مشاعري من قاع اليأس .. أصيب إحساسي بالخرس والفتور .. تيقظ العقل نشطا بتوجيهات آمرة من القلب المجروح يبحث عن سلوكها الخفي خارج محيط الأسرة والمنزل ، فلربما بلغت معه مرحلة جديدة من فصول المأساة غير مكترث بشيء يحتمي في نظرة المجتمع المؤازرة لأي رجل، حمى الغيرة تسري في جسدي وتهد أوصالي ..لا.. لن تعرف وفائي من بعد ولا إخلاصي اليوم وبعد اليوم.. وحبي الصادق يجب أن يسقط من كل حسبان .. أما كرامتي المذبوحة بسكينها الآثمة فسوف انتقم لذلك يوما وبقسوة بالغة كالسم على جرعات.

مسألة عادية وتحدث كثيرا أن تتكشف أسرار علاقة تدور بين اثنين في الخفاء ولكن ألم تقتنع سلوى بهذه التساؤلات: ماذا يعني الاختلاط العدواني بدعوى الصداقة؟.. الهمس واللمس بقصد المتعة المحرمة والمزاج المسموم.. لقاءات ومواعيد مثيرة باسم التربية المشتركة مع ابن الجيران ..لا.. إنها سعار

شهوة وفوضى ورغبة مشتعلة بالعشق المحموم .. ثم المقابلات المريبة خارج نطاق الأسرة ما غايتها ؟ .. أخطر ما يسيء إلينا خرق حرمات البيوت الآمنة بحجة التدريس الانفرادي للعذارى إنها ظاهرة راجت كتجارة مسمومة اختلط فيها الصالح والطالح.

ذات صباح حملتني قدماي كالتائه قاصدا إياها أفرغ ما في قلبي من حرائق لأصفي الحساب .. أقنعتها بأهمية الحديث وكان لي ما أردت .. أحسست بأن نهاية كذبها وتعاليها وغرورها قد أزفت .. بمفردنا استمر حديثنا طويلا .. بهدوئي وصراحتي جاءت حقائقي المدهشة .. بحدتها وثورتها المعهودة فقدت الصواب .. استسلمت واعترفت بأدق تفاصيل انسياقها وراء الثعلب المدلل .. لقد أيئستني طويلا .. عذبتني كثيرا سبحان مغير الأحوال .. عبرات اللبؤة الكاسرة الأسيفة تسعدني .. الدموع المتحجرة في عينيها الشاردتين لم تأخذني بهما رحمة أو شفقة فلكم سهرتني وحيرتني وخدعتني.. ها هي تعترف اليوم بكل شيء بعد ما كذبت على دهر.

لقد آمنت سلوى سريعا بمشاهدات ودلائل عيوني المسلطة عليها ترقبها حيث زلت.. معذرة اللهم لا شماتة.. الحب كالتقوى قد

يأتي متأخرا لا يباع ولا يشترى أو حتى يهان.. كنت تحت إمرة هواها .. لا سجينا في معبدها .. إنني ما كنت يوما سجينا، إن السجن يبتدئ عندما يظن الإنسان نفسه سجينا .. سلوى قد أذهلها هول المفاجأة.. دافعت بالطبع كأي فتاة .. دفاعها جاء مهزوزا تافها كهزتها وزلتها .. لست أسخر منها أو أقسو عليها ولكن ما كنت أظن أن هذا يحدث منها.. لم يحدث بيني وبين عادل شيء خطر يا مدحت يا للخجل. إنني أشعر بالخجل لهذا الغرض الساقط منها.. الخجل نصف السقوط .. معاذ الله .. إنك الكاذبة ليس إلا..

ألم يكفك أنك خدعت معه وانسقت إلى بريقه أما أنا فقد حملت إليك شبابي، وخوفي وحياتي وحبي الساهر عليك، إياك من ثعلبك المدلل.

عدت لصوابي هامتي في السماء .. أنقشع الضباب أحلامي وآمالي ستسير نحو الطهر والنقاء حتما.. إلى عالم من الوفاء.

افهمتني قبل أن أهم بالانصراف بأنها أخطأت وكثيرون يخطئون .. قلت لها أجل وليس على حساب الآخرين.. قالت وهي تنتحب أعدك بأنه سوف يغرب من حياتي وللأبد.. لقد سئمت الحياة بعد الذي ذاع لم أصدقها..



أجبتها لفوري: إنه سيخرج حقا من حياتك لفترة ما ولحين نجاحكما معا في إبعادي عن ساحتكما الآثمة.. ألا زلت تشك يا مدحت.. ماذا تبقى عندك من وفاء حتى تسأليني عن الظنون ؟ وداعا.. وداعا.

عدت لغرفة نومي.. استلقيت فوق فراشي في إعياء تام .. شهيق وزفير يمران من صدري كصوت محرك عربة متهالكة، غبت في نوم لذيذ، عشت رحلة حلم خيالي قصير.. دعني أرويه... ملاك ابيض ذو جناحين ورداء شفاف..يقترب مني كثيرا ، ها هو يهمس في أذني اليمنى، يتمتم، بعد قليل جاء ملاك آخر، يهمس في إذني اليسرى.. كلاهما يدندن بحديث كأنما اتفقا عليه قبل الآن.. الحلم ممتع ولذيذ.... جسدي مشدود .. الواقع أليم .. حدث تناقض .. ما زال يعلو شهيقي وزفيري أثناء الحلم .. غاب الملكان.. يا للهول.. الاثنان يعودان مليا تجاه الثقب الآتي منه الضوء الخادع .. هرب الحلم هو الآخر .. صحت بأعلى صوتي في صمت آه منكما .. كلاكما.. آثم شمس الشتاء وقلب المرأة.

***

المكان

هو حفرة على مسطح رمال سيناء، تتصل بخطوط للمواصلات تحت الأرض.. موقع متقدم على مشارف بيت متهدم قد هجره سيناوي مضطرا.. حسنا إنه خندق حيوي للشئون الإدارية وقت الحرب.. هدأت حدة المعارك الكبرى.. تنهد عشرات الألوف من رجال العبور تنهيدة نصر الله لهم... لن أطيل عليك الوصف فالمشهد الكلي ينطق بالروعة والجلال.. سمرة الرجال تلمع في مواجهة شمس الإشراق .. عادت الضحكة لتخرج بديلا عن فوهات المدافع معتزة

ومنتصرة ، الاشتباكات الصغيرة المسلحة أضحت الآن مجرد تسلية للقناصة البواسل لكنها على الجانب الآخر تحمل في مغزاها تداعي نجمة داوود.

الوقت بلغة الجنود هو ميعاد (التعيين)[1] بعد تناول طعام الغذاء- الشهي البسيط- تسلم الجميع المهام المكلفين بها وأطقم الراحة تتحلق قائد القوة، يفترش الأفراد مكانا يكتظ بأشلاء الدمار والقصف الذي لحق بساحات المواجهة الحقيقية.

لقد روته وغذته السنوات العجاف.. أطراف الحديث تقتل نصيب الأجساد المتعبة المحتاجة إلى سويعات قلائل للراحة. المرح في أسمار الجنود سيل لا ينقطع، نهض العريف (صلاح) طالبا من الملازم (سامي) إذنا بالغياب عن الموقع لقضاء حاجته أسفل التبة الصخرية المجاورة، بينما استمر باقي أفراد المجموعة يهتمون بنظافة قطع السلاح .. الحديث عن الأماني القادمة يطول ويمتد فجأة .. عاد العريف صلاح لتوه صائحا:

- الحقو يا رجالة .. التبة كلها عفن وجثث و...

---

[1] - التعيين بلغة الجيش: وجبة الطعام.





عند التبة وزع الملازم(سامي) مهام التنقيب والبحث.. الرائحة نتنة والمنطقة يعلوها ذباب له طنين كأزيز الطائرات. .. انتهت عملية الحفر، لفت الأنظار بين القتلى جثة ضابط إسرائيلي فصلت رأسه عن سائر جسده ، بقيت خوذته الحديدة مهترئة متدلية فوق صدره بهتت نجمة داوود في صدر الخوذة.. عاد القائد وقوته إلى الموقع ومعهم رسالة خطية صغيرة امتزجت بدماء الجثة المحترقة ، تقدم الملازم سامي يتفحص في حذر تام اللفافة الورقية فلربما كانت إحدى الشراك الخداعية التي دسها العدو بين قتلاه قبيل فراره أمر الرقيب (إيهاب) بترجمتها من العبرية إلى العربية.. حسنا.. إنه أحد المقاتلين أصحاب المهام الصعبة.. الحلقة تعود من جديد لكنها صامتة في انتظار الترجمة .. قال إيهاب مسمعا القائد والجنود على لسان الضابط القتيل:

"إلى الفراعين.. أيها المصريون.. يا خير أجناد الأرض – أيها المسلمون العرب.. الآن وقد دمرتم الخط الذي تصورناه لا يهدم .. وانتم فوق سيناء أمننا البعيد وأرضكم العائدة، اعترف لكم ونجمة داوود تنهار أمامكم لأول مرة .. أقول لكم قضيتكم حسمها بسالة أبناء النيل.. فرحمة بأسرتي الحزينة للأبد،



أرجوكم تسليم جثتي المقدسة إلى أول شارع الصابرا داخل تل أبيب .. وتعسا لكل قادتنا معذرة . إنه رجاء ميت .. وختاما هنيئا لكم حلاوة كؤوس النصر وتحياتي لرجل المشاة المترجل الذي واجهني داخل دبابتي بصدره وأمطرني برصاصه.. لعله قد شفي من كل الجراح.

***

مدينتي

تحتضر .. الوجوه كالحة، لكنها من عمق أعماقها فرحة وآملة .. الرياح تشتد والليل يمضي موحشا، الأيام تقاس به، الزمن يستخدمه في عقاربه ، الهدوء نائم تحت بركان من مرارة الواقع ولا نريد تغيير أنفسنا لتعلو البسمة كل الوجوه.. حسنا، ما زالت النوافذ تحدث صفيرا وصداما وليس هناك ما يخشاه هذا الرجل الأعزب الحائر أو يخاف منه أو عليه وهو يعيش بمفرده، ما زال يسمع أنينا خافتا من الخارج أشبه بأنين

امرأة فقدت كل شيء .. يستمر في أرقه وسكره غير مكترث بمهام مدرسته ودروسه.

تجاوزت عقارب الساعة الواحدة بعد منتصف الليل هواء السحر ينعشه ويذكره بليلة من ليالي الزمن الماضي حينما بدأت تتجسد أمامه أطياف وأوهام لذيذة وممتعة.

تمثلت المرأة التي قدر لها أن يلقاها بين أربعة جدران. كانت تتثاءب، تنفجر أنوثة طاغية لكنها باردة أيضا.. تراءت له قائلة:

- لا.. أ..

- طيب كفاية شرب؟..

- أيه ...ساعة لقلبك وساعة لدرسك !! كله درس .. أومئ إليها في ضحكة بلهاء .. اسمعيني: كله درس! بينما سهامه مصوبة تتفحص مفاتن جسدها الطري، وهج الشهوة يحرق الأطياف.. بقي طيفا مائلا يتثبت وما يلب ثان يعود من جديد ، ستار الغريزة يحلو بلعبه الخيال الممتد .. لم يجدها ككل مرة تحت إمرة هواه .. أفاق جيدا على صوتها وهي تنسحب في انكسار .. حسنا.. هتف في أذنيه صوت آت من خيال قريب:





- لتبدأ المشوار معها .. لا فائدة..طيفها يعود أمامه يتثنى كزئبقة عضه.. زين له أن الأبواب مفتوحة هذه المرة أيضا.. دقق النظر متفحصا .. تهويمات ليس إلا .. كل شيء مغلق أمامه.. الأرق يكاد يقتله ويوزعه أشتاتا بين عذابات الندم ونداء الشيطان القابع في جسده، الساري اشتهاء في أوصاله.. معذرة فالمثير قبالته طوال مشاهد الطيف، يستعيد وجه تلميذته اللاهية بطلة حلمه كما هي بطلة واقعه الأليم.. وجهها يغرق في بحر الزينة المستعار .. الطيف يزينه أكثر إثارة .. ما اجتمع اثنان إلا والشيطان ثالثهما...

الشيطان يصرخ ثانية في صمت .. لبيك يا مليكي بل فارس ليالي الحمراء هل أعد لك العشاء ؟ كفى شربا .. وهل؟.. أنا بوسعك لدرسك وحضنك .. بغتة تراجع الطيف من حيث أتى .. الصبح يهل بتباشيره .. تقلب في فراشه ، لم يجد الغطاء!.. نظر إلى معصمه كي يستقرأ ساعته .. قفز إلى نافذة غرفة نومه يطل منها .. لم ير شيئا سوى ظل امرأة وظل رجل

وخيال بعيد.. بعيد ، بينما طارق سراب يدق بكلتا يديه على باب غرفته المفتوح.

***

قرص

الشمس النحاسي اللامع وقت الغروب يداعب صفحة المياه.. جدائل من أشجار الصفصاف تلامس جافة ترعة القرية .. جموع من الفلاحين تبدأ رحلة العودة إلى البيوت الطينية.. أبجدية التكوين تنطق بالغموض كما تبهر بالجلال .. أغاني الإياب تطرب وتلذ، أناشيد عشق في الأرض الطيبة.. قطرات الندى وحبات العرق معزوفات لإيقاعات الخير والقناعة .. بين طرفي اللوحة تتثبت صلاة العشاء، تتراءى لقاءات الأتقياء مع

البسطاء عفوية .. حول أروقة المسجد الجامع الكل يتوحد أمام الواحد الخلاق.

الأطر الصغيرة الدفينة في ثنايا الإطار الكلي تكون أحجبة وألغازا لا تقدر عليها تفسيرات العيون.. أفكار مجهولة غابت في الضمائر، ربما خرست بها الحناجر .. ذاكرة القرية السمراء تستعيد هذه وتلك كأنما تبث فينا في صمت:

- مهلا أبنائي .. لا يخدعكم بريق المدينة .. فكلما تقدمت المدنية كلما ازدادت تعقيدا .. عودوا لحضن الأرض وحصن المسجد .. موكب الإياب الأكبر المحتوم يقترب .. قبل الوصول إلى المرفأ الأعظم أقول لكم .. قد أزفت الآزفة فهل حاسبتم أنفسكم قبل أن تحاسبوا؟..

معذرة إن لمعت نقوش وزخارف حول تكوينات الإطار قد تبدو ساخرة لكنها تحمل بذور المأساة .. إنها ملامح دالة دونما قناع .. اللون الأسود الغالب ينقل من أرض الواقع وفاة زوجة الشيخ (شوكت الدسوقي) .. خرجت القرية تودعها في موكب مهيب كاد يماثل مشهدا جنائزيا قديما.. يوم مشهود لحملة المباخر والأقارب الطامعون أما المنتفعون فهم بالطبع عديدون ..

استمرأ الشيخ حياة الحرية والشهرة بعد رحيل زوجته المباغت .. أعف فكرة الزواج ثانية من الجائز أن يكون إخلاصا منه لروحها أو إرضاء لابنته الوحيدة.. أو.ربما. .. الأيام تتعاقب تطحنها عجلات الزمن طحنا وحظ القرية من فاسد العصر غير قليل.

المسطحات الخضراء المحيطة بالكتلة السكنية ترعى في جداولها الحشرات .. أماتت عصارة المعمل طيور الحقل النافعة الأليفة.. باتت أخطار الآفات تنعكس على سلوك الآدميين شيئا فشيئا.. الجشع، التلون، العفن، الكسل والتباغض.. و .. الفساد الذي ينخر في الأمكنة أضحى هو الآخر مرآة حية لعربدة الديدان والقوارض .. هناك أشياء ما يجب تغييرها في داخلنا كي نتطهر.. رحى الحضارة أضافت حيوات أخرى للقرية الصابرة .. مرافق عديدة.. لعبة المنفعة والسياسة وتشكيلاتها تتشعب.. تاهت وسط هذا المد أناشيد الحب تحت أشجار التوت. ربما أصيبت أغنيات العرس أيضا بالزيف والبهتان .. بريق الشهرة في مظاهرها الوافدة يسيل

لعاب الشيوخ قبل الجهاز السحري (الفيديو)[1] يعربد كابن في عائلة المرئيات المحمومة.. يلوث بضجيجه أجواء القرية ، تسبق موجات الشر منه موجات الخير فيه ، كعشق الكسل وقتل الوقت بات جد خطير.. الخفافيش تعرض ألعابها المثيرة في جوف الليل .. في عصر الاتصال والطاقة تتعدد مصادر السقوط.. أشهرها سقوط ما بعد انقطاع التيار يأتي مروعا عقب أشواط عديدة من المراوغة والطيران ، تجيد الذئاب البشرية ألعاب الصيد والقنص هي الأخرى.. رحماك أيتها القرية القديمة.. قلما تشبها أية شائبة من دنس ولم تعرف أبدا جرائم قتل كجريمة الأمس الغبراء .. لقد جاء مقتل (فرج النجعاوي) كما تنطلق الحمم من جوف بركان .. قالت التهمة أنه اغتصب عرض أخته بعدما أفرج عنه من سجن الدائرة بقليل.. أمر مثل هذا ربما تصوره الروايات الوافدة أمرا عاديا.. في قريتنا قال الشيخ الصوفي "الجزاء قصاص" دماء القتيل ما زالت تسيل والثورة تبز ضده يقودها (الشيخ شوكت) ذاته من مقر دار مشيخة قرية(كفر الأشراف) .. صدحت نداءات الأطفال:

[1] – أحدث التقنيات يومئذ، أما الان فقد تعددت الوسائط المسموعة المرئية

- فرج يا نجعاوي يا شر في داهية من الكفر.

- القاتل هو الشر .. بان الإيمان من الكفر.

....

عربة المحقق تصل في حراسة الشرطة تنهب دروب القرية نهبا وهي في طريقها إلى مسرح الجريمة.. الإجراءات المبدئية تتم.. هيئة التحقيق تدلف إلى دوار العمدة العتيق يتقدمها الشيخ شوكت شيخ البلدة .. الجدل الصامت يلف مقر (العمودية) ويجزم باللاشيء وكيل النيابة يكاد يتعثر فمشاعره مهتزة، لسان حاله يقول:

- أغرب قرار اتهام في حياتي.

حتى الآن الدلائل هشة والقرائن غامضة.. الجناه أذكياء ... وكثيرون... مجهولون أيضا حتى هذه اللحظة.. والمجني عليه ليس له أعداء، لقد عاش فقيرا متهما أيضا. ليس له من جاه إلا حائط مائل هو أخته الخرساء (خضرة النجعاوي) مخدومة الشيخ طوال النهار وبعضا من الليل .. أصابع الاتهام تقف عاجزة .. فداحة الجرم أن القتلة وضعوا الجثة وسط فناء

مدرسة القرية فطالعتها عيون التلاميذ البريئة، بالقطع تناقلوا بشاعتها بين الطرقات.. بئس ما فعلوا .. وعلى النقيض .. كتم الشهادة العمدة وشيخ ناحيته الهمام .. نجح الخفراء في الرد على أسئلة النائب العمومي .. المعلومات شبه سراب .. كل شيء تمام يا أفندم !! وليسأل حضرة العمدة .. فلم يجد الوكيل مفرا من اللعب بآخر ورقة أمامه.. استدعيت أخت القتيل، لم تحرك ساكنا، تعبيراتها الصامتة هي عمق مأساتها.. غيبوبة خضرة تأتي منقطعة شبه منهارة .. الخرساوات ينهرن أكثر .. أمام هذه اللوحة الساخرة المرة قيد الوكيل الحادث ضد مجهول. هم بالانصراف تودعه ابتسامات الرضا المصطنعة على وجوه الحضور .. خاصة بسمة باهتة بلهاء علت وجه الشيخ شوكت، بينما تجمع أهالي كفر الأشراف من خارج الدوار وخلفهم جمع من النسوة ينتظرون التصريح بدفن الجثة.

أحس الشيخ شوكت بانتصار سهل أضاف به ثقة جديدة إلى رصيده الجماهيري في القرية وسائر القرى المجاورة.. يذكر له كل أناس الدائرة سمعته وشعبيته بعد شهادته التضامنية الأخيرة.. عدالة السماء تمهل ولا تهمل أبدا مهما كانت للقوانين أنياب أو للضمائر الخربة قواطع.. إنهما متغيران الثابت الوحيد

أحكام السماء وفي الأرض حمية السذج من عامة القرية تستمر.. تجري جريا عفويا خلف الشيخ .. يمضي هو الآخر مكتسبا العون والتأييد، مزهوا بنفسه يضحك ضحكات التيء، كأن شيئا ما لم يحدث.. أعد العدة لترشيح نفسه في الانتخابات البرلمانية المقبلة .. نصف قرن عاشه أو يزيد وهو يحلم باستعادة كرسي العائلة الغائب عن قبة البرلمان.. جاءت الأحداث الطازجة الأخيرة ملائمة للحصول على أغلبية ساحقة من أصوات الناخبين بدأ يطرق على الحديد الساخن .. وزرع كغيره من المرشحين الأماني الزائفة والوعود البراقة .. تتحول معظم الأحلام فيما بعد إلى سراب ليس إلا.

أسلحة الشيخ كثير ومثيرة.. لم لا وهو يملك الثروة والوفرة و.. هكذا عاشت كفر الأشراف مائة ساعة كأنها سنة بأكملها.. الحديث عن علاقة جريمة القتل بالانتخابات يطول ويمتد ليل نهار .. الدواليب في الحقول ترتل الحان المرارة والدهشة .. حمرة الخجل الممزوج تعلو وجوع فتيات القرية وهن يسرن منكسات الرؤس كأنما الجريمة مستهن جميعا .

في كفر الأشراف الالتفاف حو قيمة الشرف يتقدم كل القيم الأخرى .. خيط دقيق وغال التقطه شبابها المثقف راح ينسج

منه تفسيرات ما يجري.. حوار الشباب خلال الأمسيات الصيفية له سحر خاص.. دورانهم بالأفكار حول القرية لا ينتهي إلى قرار.. راحو فقط يتشدقون بنظريات علم الاجتماع وتحليلات النفس البشرية .. يشكلون في اللوحة علاقة وهمية بينها وبين حادث بلدتهم المخزي .. تشتد المناظرة .. يتحمس أشدهم انتصارا للفضيلة قائلا:

- الجنس أيه وفرويد قال أيه ؟ أو حتى الاختلاط في النوم أيه؟ .. ربنا قال :﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾

يبادر صديقه في كلمات هادئة:

- إن الله حليم ستار .. اطلبوا له الرحمة ولها التوبة.

تلتهب حلبة المناقشة بينما تسرق خطواتهم مسافة بعيدة من زمام القرية.. لا يفيقون إلا على أنغام مبعثها دعوات طائر السحر وهو يشدو على مسامعهم .. الملك لك.. لك..لك. ربما تصوره البعض كميقاتي أمين يعلن تباشير الفجر الجديد يحثهم العودة إلى القرية من جهد الفكر وعناء المسير.

بينما كان الشيخ شوكت ينثر أماله ويوزع وعوده على أفئدة المكدوحين.. كانت هناك معركة مضادة يخطط لها ويقوم على أمرها أعداؤه القدامى ممن رفض مصاهرتهم، لم يفلح أحد من بينهم في الزواج من ابنته الوحيدة (حسناء)..حسناء الدائرة كما كتب للاسم على هذا المسمى أن يبلغ من الذيوع والانتشار مبلغا عظيما في كل مكان تتوقع فيه أحاديث الحب والزواج والجمال كان يتردد اسمها ووصفها على كل لسان.. نصيب الأسد بالطبع كان عنها كان أثناء تجمعات الشباب الموسمية أو الصيفية أو الليلية..كانت هناك أيضا الفروق الملحوظة بين الأب القوي المطاع بماله من تاريخ مع الناس، بمره قبل حلوه وبين ابنته الجميلة التي صيغت من ود ورقة وحنان .. معذرة .. الحملة الانتخابية الأخيرة تجيء وتشتعل أصبحت شغل شيخنا الشاغل .. وعلى زاوية أخرى من ظلال اللوحة كان تتحسن الأحوال الصحية لخضرة النجعاوي .. فحسناء ترعاها وتهتم بشئونها أكثر من ذي قبل .. تحنو عليها وتخصها بغرفة أعلى سطح الدوار الفسيح ، خاصة منذ حادث القتل المشئوم .. الصراع على الأصوات يحتد ويشتد .. التنافس هذه المرة غير شريف





يتحول في الأعم الأغلب إلى أطماع المنصب.. بالرأي هو فارس الساحة .. ربما الجهل به لعبة موروثة .. تبا لذلك..

والأكثر أهمية أن الشباب بدأ يدخل المعركة يشارك أكثر مما يتحمس.. اهتم (صادق الشريف) قبل غيره من شباب الدائرة بما جاء طوال الحملة الخيالية التي قال بها خصمه اللدود يوم تمنع عليه كغيره بابنته الحسناء.. عجب بما جاء بملصقات الجولة الأخيرة وراح يتساءل في سخرية:

- كيف يعد مرشح برلماني ناخبيه انه سيحول في يوم وليلة البرك والمستنقعات إلى رياض لأطفال الدائرة، بل سيغير من أشكال البيوت الطينية ذاتها..،..و

قتامة الألوان تتحول إلى الرونق والبريق الزاهي .. الضبابية من خلف اللوحة تذوب وتحل محلها إشراقات التكوين .. الجانب الآخر يحيا بهجة الواقع الذي يجد.. الفرشاة تتطهر من أخلاط الكآبة .. سكين المأساة تتوارى ظلال الأنوار المبهرة.. أما حسناء فالحق يقال إنها ما زالت ناعسة كالألم.. مظلمة كالسر مشرقة كالشمس.. فقد حزنت كثيرا على سقطة الأب المغرور.. من يومها بدت وردتنا تذبل وعطرها يشح .. نورها

يتضاءل لاحظ الشيخ الكسير ذلك ، فاستجمع قواه ومثل أمام ابنته ادوار اللامبالاة.

شهور طويلة، طويلة بطول الزمن تمر والأحداث تكتب في خزانة الواقع فصولا جديدة ها هي حسناء تمضي آسرة بأنوثتها الطاغية كل المحيطين بها.. فؤادها المحب الودود يسع شباب الفقراء قبل الأغنياء.. راحت تعلن في وداعة إنها اللغز الأنثوي القتال في الدائرة.. لغز جمع بين سحر النساء وبراءة الفتيات.. حسنا.. بدأت شلة من المخلصين لأبيها في التردد عليه .. اللهم لا شماتة.. أن رجلا له ابنة مثلها تملك هذا القلب وذاك الروح لجدير بأن يلتف الكل من حواليه، شغفا وطمعا قبل أي شيء آخر.. من الواجب أن يعيد الشيخ حساباته وينقي معاملاته مع الناس متناسيا الفوارق والأبعاد، حقا أحبوه ناصروه.. ولكنهم ناصبوه العداء أكثر عندما ضلل بهم في موسم الانتخابات الأخيرة، ثم تمنعه المستمر بالابنة الملاك ملقيا معاذيره على مقولة القسمة والنصيب.

من بؤرة الشعور إلى هامشها داخل الدوار تنفست خضرة النجعاوي الصعداء.. بدأت تنمو الإرادة الحديدية للخرساء.. تحسن صحي ملحوظ بدأت تستعيد معه خضرة تدريبات القراءة

والكتابة.. تتقدم في محاولاتها الواثقة.. سهل من المهمة نهوض حسناء بالمهمة الثقيلة معها .. الأنوار تدخل جنبات الدوار وما تلبث أن تغيب بين عشية وضحاها فلربما يدهم خضرة ثانية نوبة الصرع التقليدية.. البيوت أسرار .. صحيح جاء تعاطف حسناء معها لا لعمق المأساة فحسب، وإنما لأنها لا تعلم مكيدة الشيخ النكراء عندما دبر واقعة اختلاس فرج للمبيدات ليزج به في السجن دونما مبرر .. إنه الشر الذي يلاحق الخير قدرا مقدورا.

بدأت كفر الأشراف تلتقط الأنفاس، فقد خمدت النيران تحت الرماد.. ربما إلى حين .. الشيخ شوكت لا يفارق الدوار إلى أية مكان بالقرية أو خارجها سوى مقر العمودية .. سئم مواجهة الواقع .. تسللت الأخبار على الألسنة كاذبة صادقة.. طار خبر من بينها كلمح البصر:

- الأيام دي حسناء مهتمة قوي بخضرة.. أيه السبب؟

..الأقاويل تكثر والشائعات تتردد والتكهنات تسري كالسم الزعاف تجدد سعير النيران من تحت الرماد.

....

....

جاء الطبيب المعالج الذي استقدمته حسناء من البندر ليعالج خضرة يحمل في جعبته الأمل وهو يعلم أنه في مثل هذه الحالة تلاحقه وتطارده كل عيون الرامين بالشر وبالقول الشائع : مفيش فائدة..المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين...خطى العلاج تسير وئيدة ، الشيخ يغيب عن اللوحة أكثر خاصة هذه الساعات .. أحشاء خضرة تنتفخ عن آخرها .. كلما تكورت نمت معها فكرة استرجاع القرية لواقعة الإثم ومشهد القتل المروع ، محاولات العلاج تبوء بالإحباط .. العلاج في هذه المرأة اخطر من كل تصور.. زعق الصوفي .. معاذ الإجهاض.. بعد غيبوبة أمر الطبيب بنقلها إلى المستشفى المركزي حيث المحاولات الأخيرة.. الحجة إياها: التحاليل ونقص الإمكانيات في القرية.. وعلى عجل كانت العربة تقلهما، خضرة ترافقها بالطبع حسناء .. الطريق مظلم ومترب والزمن قاتل .. بغتة وعلى مشارف المدينة اعتراضاتهما عربة فارهة تضم مجموعة أخرى من الذئاب البشرية أصحاب الساعات الذهبية، هواة الاغتصاب.. توسلت الأعين .. انفضت الثورة في صمت .. يا للنذالة التفكه والفراغ الممقوت ؟.. في غرفة

العمليات لم يستجب جسدها المتداعي لمحاولات نقل الدم .. اقتربت سكرة الموت .. أشارت خضرة في صحوتها الأخيرة تطلب ورقة وقلما .. أصيب الكل بالدهشة .. كتبت في حروف مرتعشة وهي تحتضر كلمات جامعات قالت:

- الـــ ف بطني أخوك يا حسناء .. فرج مظلوم.. المسامح فوق...

جاءت بلاغة البكماء كأقوى دليل يدمغ نتائج كل تحليل.. في تثاقل شديد انسحبت حسناء تلوي بين ردهات المستشفى تلاحقها نقوش الوريقة التي سبقت الشهقة الأخيرة.

***

رحلة

آدم ممتدة .. حواء العصر تمضي في الغي، مرتدية أقنعة شيطانية.. تعود مثل (العدوية) دونما صوفية تسرف في الإغراء.. تتثنى تعرض ألعابها بين الرواد .. تجوب الملاهي الليلية أو تحت ستار خلف الأضواء، تلعب نفس الأدوار تصطاد لتقتات...

في قريتي القديمة الجديدة أمثلة لهذه وتلك، لكن ما عادت نسك الزهاد أو حلقات التطهير تفيد. فاللعاب يسيل والأطماع تزيد.. دائرة الساحة عفنة يعرب فيها أسرى الأفيون والدخان الملعون. معذرة إن كانت تتصدر المنتديات الرثة شعارات مسموعة مرئية من أبواب (التلفاز)، حذر من أضرار الخدر الممقوت.. تحذيرات مثلي لا تلق التأييد إلا من عالم واع في الفتيا، لكن تتثبت وسط الموج المتلاطم آمال في الغد المأمول.. حسنا.. ما زالت التهويمات الفلكية للعراف تدور ، تتجاذبها ألسنة العامة المكتظة فتزداد تعقيدا ومجونا.. بقي على مقربة منها نفر من الأميين التعساء يطوقون حارات القرية بالرايات الصوفية وبلا زخرف، يأكلون، ينامون، يدخنون لكنهم في النهاية يوحدون في رضا وقناعة.. كان (كفر المنصور) .. المرتع لأحلام الأطفال .. خرج من بينهم إلى دائرة النور صغير واعد لأحد الفقراء .. عيون الحساد تلاحقه ليل نهار .. سيرته ناطقة وعلى كل لسان:

– عجيبه.. صبري ابن مجاهد أبو شعبان عنده.. ست سنين وحفظ القرآن..

ما زال الفلكي العرف يتنبأ بأحداث العام .. لغة كاذبة صادقة يتخاطبها سكان الكوكب... الركب عجيب وغريب.. أسلحة فتاكة تحيط بأشجار أعياد الميلاد .. الحلوى والبارود وشبح الجوع العارم.. أضداد تحيا وتموت ، وقبل أن تتوارى في الطين تتجرع كؤوس الواقع ونحن كسالى نطمع في التغيير .. نشتاق سماع نبوءات من الأوهام البراقة.. الزمن الملتاع يهرول يعدو في مضمار ممتد وفسيح.. يبحث عن كوكب آخر يبث إليه مكنون الأسرار ، فالأرض الحبلى قد ناءت بحمل الأوزار. صدى تسبيحات الإنسان تروح .. تجيء تقف بالمرصاد أمام المد المحموم.. معذرة مرة أخرى فالرياحات تصب في تفريعات العشق المسموم ، والنهر الأم يغتسل من أوحال الملهاه يعانق شمس الوادي الحالمة بالحب الأزلي لكل بنيه .. بحياة ناعمة في الوادي والدلتا فارغة من كل آثام وهموم ... الناس تتزاوج وولد الكفر الواعد ينمو، وأناس تتناسل.. تتوقع.. تغتر .. وتتذاءب والأقوى في الحقد أو الجرم يسود، بينما أكف مليونية تفوز ..فقاعات من قلب القاع .. تتضرع صباح مساء تحلم بالسكنى وسط الجدران.. ترجو قسمة لقيمات تسد رمق المكدوحين .. أو حتى عن متنفس يوقظ ملكات البسطاء...

مضى ربع قرن في عمر الرحلة المحفوفة بالأخطار .. المملوءة بالأضرار كي يتخرج ابن الكفر في الجامعة الكبرى .. أمل غال.. معان مطوية في سجلات الآباء الرحماء .. على هامش كفر المنصور، ولد وربي طفلا لا ككل الأطفال، إذ رضع لبن الماعز ولم يرو من صدر الأم الحنان المعهود.. لم يسعد أبدا بالعيد .. منعته الأقدار من شهد البقرة المحترقة مع أمه في حريق مشهود مشئوم.. خرج الأب(مجاهد) دون البقرة وتحت سقف متهدم ليصنع تمثالا من حب وفولاذ.. يعرق .. يضرب فأسه في بطن سنوات الإعصار كي يبني ولدا .. رجلا فوق الأحزان.

أما عن حيوانات الكفر فما زالت هي الأخرى تتوالد، تكبر، ترعى غيطان البرسيم الرحبة طوال اليوم وتعود محملة بالخير يحدوها الأجراء لتفيض بكرة وعشيا داخل بوابات الوجهاء وعلى الطرف الآخر كسرات الخبز الجافة يتقاسمها بطلينا في حمد وسرور.. يدعو شيخ الكتاب للابن الواعد بالمجد والبركة، فذاكرة (صبري) تحت مسامعه يرعاها، أنشودة عشق للحرف الرباني المكتوب، صلوات علوية في مدد الرحمن.. ما لبث أن احتوته قاعات الدرس المنتظمة ليمضي داخلها عامين وعشرة

سنوات، علما متصلا بين الأقران.. القافلة تسير صوب الميناء برغم الجدب والقهر السيار.. نجمه يعلو في حين تشتد على كاهل أبيه الأمراض ..يلمع اسمه في الكلية ويتفوق في السنوات الثلاثة الأولى.. تتوجه قبالته الأنظار.. حسنا جدا.. بدأ الأب الأرمل ينزع هو الآخر عن صدره عناء الأيام السوداء، في حين تلاحق ولده في العطلات الصيفية غزوات الفتيات القرويات.. عجبا لتصاريف الأقدار؟.. جميلات يسرن أمامه بالعطر الشعبي الفواح وكلهن حياء ودلال.. ويا أسفاه.. هن أساري لقانون العصبية والجاه.. الحق يقال إنه ألقى من نظره مثل كل شطحات الأهواء، فاختمرت أبدا عنده فكرة عشق الحرف.. راح يجدف في عمق الرحلة إلى جنب أبيه المأجور، يجمع بين الدرس ودنيا الأرزاق، لمعت طموحاته داخل قاعات الآداب.. يتذوق ويتوق لموعد قطف الثمرة.. ساعات حياته قنديل كفاح مسكوب يشع أحلاما وردية تصطدم بأمل يبني البيت المتصدع في أطراف كفر المنصور وبشراء البقرة كي يضحك من قلبه والده المحزون.. يغني في ظل الشجرة مواويلا تصدح بالحب .

الجهد المبذول – حتى الآن– لا يأتي بأوراق المال وبالأحلام المنشودة.. بالكاد يقتات الابن بجنيهات شهرية معدودة في العاصمة المسحورة ، إذ يسكن ورفاقه في إحدى الغرفات البالية باهظة الأعباء .. يسهر ويفتش بين الصفحات ويحفظ في وعي محاضرات الأستاذ .. ضوضاء السكان سيل جارف.. وأنين الموقد في الغرفة مبتور الأرجل ، لكنه يغلي دوما بإناء الشاي الأسود .. تتصاعد من فوهته العارية حفنة أوجاع، قد تتبخر أو تتكاثف .. لا تهدأ أبدا إلا مع فيض الصلوات الدائمة المرفوعة لله..

وهج شمس أغسطس – أثناء العطلات– يلفح صبية كفر المنصور وهم يتخلفون إلى عيدان القطن يقاومون الديدان.. انتصب صبري وراء الصبية كالصقر يمارس هوايته الصيفية لقاء اجر رمزي هو عون مشروع يجمعه طوال العطلة في نشوة.. سهام الفتيات لا تكف عن التصويب وصاحبنا مشغول عنهن بحلقات المسجد والاشتراك في مكافحة الآفات ثم رعاية الأب المصدور الذي بدأت تدهمه نوبات من الإغماءات .. لكن طبيب القرية التاجر بسنيى خدمته الريفية يتحير في التشخيص



.. الرجل الفولاذي يقاوم .. لله الأمر من قبل ومن بعد.. يكتم مجاهد آهاته.. يصرخ في صمت:

- اطمئن من ناحيتي يا صبري .. أنا بخير.. أهم شيء شهادتك الكبيرة..

- ربنا يطول في عمرك وأسعدك .. يا رب.

....

....

- لا ينقطع سباق الدرجات، موصول بجهد الشرفاء من يبذل أكثر يحصد أكثر.. في السنة النهائية تتزايد الطموحات وتتشابك في ثقة واطمئنان إلى بضعة أسماء، صبري كعادته راهب لا يشبع من بحر العلم.. مثله الأعلى إشراقات نبوية تقول :

:" اثنان لا يشبعان طالب علم وطالب مال"..

شغفه بالأول محمود معلوم، يتراءى في قاعات الدرس أو في منتديات الأدباء ، أما طلبه للثاني فلكي يبتاع لأبيه الـــ..

الشتاء يجر سحاباته .. ينتصف العام والحلقات الجادة تشتعل دفئا بين الطلاب .. صبري يتوزع فكره بين فلول البرد القارس والصراع على (الدرجات) و... رسائل كفر المنصور المتبادلة تحمل مزيدا من الشحنات.. فأس الأب عادت تضرب في الأرض وما زالت دعواته يحملها البريد تباعا تتحول إلى ضحكات جلجل على إيقاعها ابنه وسط الشلة..

البسمة تتثاقل بين زملاء الكلية في غير وجوم.. النهم إلي تحقيق الحلم يزيد رفاقه يتحلقونه كالأستاذ ، حتى (نيفين) بطلة (كافتريا) الكلية صاحبة النجاح السنوي بالتقدير الشعبي (المقبول) تضرب عرض الحائط باللهو الفائت وتنضم إلى قافلة الجدية .. بالطبع ازدانت لقاءات الزملاء بالعلم و.. بالحب.

الرسائل من والى كفر في طي النسيان .. الامتحانات النهائية على الأبواب .. بدأت نيفين تصحب صبري في عربتها الفارهة كي يستذكر معها .. شبه إقامة في فيلا الدهان.. قرابة شهرين وهو في حل عن باقي الزملاء .. يا للخيانة!! سحر الإغواء يطفو والإغراء يفتنه قتال.. لا ضير ما دام القصد شريفا .. أحلام الفقراء قد يقتلها الأثرياء.. لا يدري كيف يواجه ماجد على الساحة .. أهي قصة حب عاصفة يحياها؟.. هل تعصف

بكيانه وبـــ..نيفين الدهان وصبري أبو شعبان .. يا لحلاوة موسيقى هذه الألقاب رغم عقدة الطبقات المعروفة؟..
قيم كفر المنصور تخبو خلف الديكور .. أبهاء المستورد وبريقه وبالساخن والبارد والآلي وبأصناف من مطعومات لم يذقها في كنف أبيه طوال سنوات عشرين ..صنوف و.. أغلفة ماكرة براقة..
البشرى والفرحة ترقص في عينيه:

- ألف مبروك النجاح .. النهارده عرفت النتائج..

- مش معقول أحسن خبر بابا يسمعه في المطار الليلة.

بهت ولم يحرك ساكنا ارتعدت فرائضه .. فكر أن يهم منصرفا.. لاحظت فاتنته ارتباكه، ابتدرته هامسة في غير اكتراث:

- و.. (باباك) يا ترى عرف نتيجتك؟..

- أبدا حضرتك أول إنسان يعرف..

- طيب نعمل له تليفون وإحنا في طريقنا للمطار نستقبل بابا

- تليفون؟...

....

....

في أعقاب مغادرة المطار كانت قد وصلت طائرة نقل كبيرة اتجهت القوافل بحمولتها الهولندية إلى مزرعة الدهان.. داخل العربة في رحلة العودة للفيلا تساءل والد نيفين في غير لياقة :
- سيادتك صاحب مزارع؟..

- ..لا..

- أنا زميل نيفين ووالدي بيشتغل في ....

قطعت ابن الدهان الحوار هاتفة في فرحة غامرة:
- أنا نجحت بدرجة جيد والبركة في مساعدات الأستاذ... زميلي .. يا (بابي..)

- مليون مبروك.. دلوقت عندك حق أغير لك موديل السيارة..

....

....

تجمع الخدم حول المدخل ينتظرون قدوم المليونير العائد.. تصل العربة، بينما يلمح من داخلها صبري في المقعد الأخير.. رأسه تنظر تحت قدميه خجلا .. قطع الخجل دهشة بالغة ترتسم على جبينه .. لقد رأى شيخ خفراء كفر المنصور يتأبط ذراع أبيه .. مراسم استقبال الدهان تبدو فاترة ومصطنعة.. إنها تقاليد المخدومين تجاه السادة و..ولكن اللحظة ذاتها تشهد لقاءا عفويا وأمينا.. صوت قروي طيب يتسمر على الباب ودموع عالية وأياد تتأهب للأحضان .. مشهد صادق وبريء .. سأل المليونير:

- من؟.. عمال المزرعة هنا يا نيفين؟..

الموقف قاتل ومهيب.. زعق مجاهد أبو شعبان فيمن حوله جادا ومتسائلا:

- فين البقرة يا صبري يا بني؟..

هم المليونير بالدخول وبصحبته نيفين قائلا للجميع في جفاء وكبرياء :

- بقرة واحدة .. اتفضلوا على المزرعة .. الطرد الهولندي وصل المزرعة حالا .. وكله عينات من البقر الممتاز.

....

....

زلزال المشهد يهز المستقبلين هزا، خاصة صبري الذي أعاده الموقف لرصد الأشياء بمنظار آخر.. أحاطت ذراعا شيخ الخفراء بالابن الصامت في اللاشيء وأبيه النشوان.. انسحبوا في هدوء لا يلوون على شيء سوى انتظار قطار الظهيرة المتجه إلى كفر المنصور؟..

***

أوقفت

محرك السيارة أمام ملهى (الزهراء) الليلي كعادتي مساء كل خميس.. وقت ضائع أنفقه في غير وعي عله ينسيني ألام وحدتي القاتلة.. حسنا.. هممت بالدخول إلى المدخل أصلحت من هندامي.. سرت بضع خطوات شبه واثقة نحو الصالة ، لفت نظري عدة ديكورات رائعة ابتدعتها لمسات رقيقة لفنان موهوب ، أصوات الموسيقى الغربية الصاخبة تنبعث من داخل الصالة فتطرق أسماعي طرقا.. لم تستطع قدماي أن تجرني

إلى ركني المعتاد .. حسنا جدا .. فلست من عشاق هذا اللون الماجن أو هواة الاستماع لإيقاعه المثيرة للرغبة.
أدرت ظهري متجها إلى حديقة الملهى الصغيرة المطلة على حافة النيل مباشرة .. اتخذت لنفسي مقعدا يواجهها تماما دون قصد.. لا تندهش إن جاءت جلستي قبالتها ربما شاءت الأقدار لتعوضني عن برنامج الليلة الفاسد .. الدقائق تمر رتيبة .. جاء الساقي بزيه المميز ليضع عصير المانجو وانصرف.. ظلت نظراتي مصوبة ناحية تلك الحسناء.. أشعلت السيجار، بدأت أنفث دخانه في اللاشيء بينما تركزت حواسي قبالتها.. كأني أعرفها قبل الآن .. معذرة نسيت لقاء شلة الأصدقاء بالصالة .. شدتني الحسناء بأناقتها الواضحة وعيناها الخضراوتين وشعرها الفاحم المتموج .. لم افلح في مقاومة هذا الإغراء .. تسمرت في مكاني ألاحظها، أراها قلقة تبحث عن أغوار المجهول.. قسماتها تشهد بالتيه وأنها تعيش حياة الانطواء أما وجهها الشاحب فما زال يعطي معاني الخوف والشرود، ملامحه تكاد تنطق بقصة حلم سرابي تحياه هكذا بدت لي .. لست قارئا للأفكار ولا بعالم روحاني، إنما بهرني وحيرني كل هذه الغيوم وسحابات الحزن المنقوشة فوق وجنتيها.

....

....

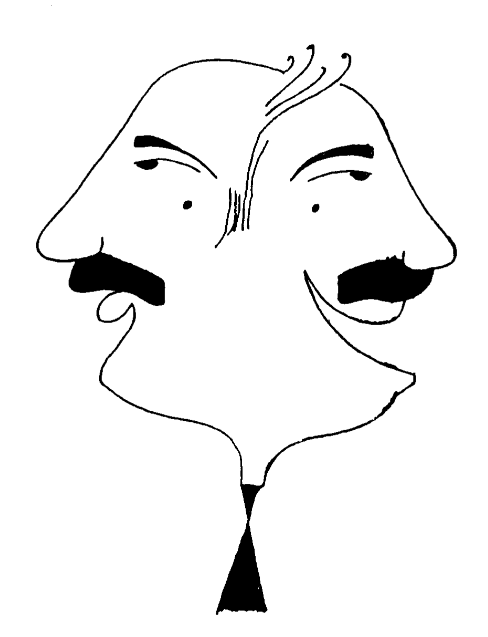
للمرة الثالثة توضع القهوة وترفع من أمامها .. تحولت لفضولي .. استوقفت الساقي وهي تجذبه من طرف سرواله .. أشارت إليه في صمت ليأتي بالقهوة الرابعة و.. أراد محادثتها، لم تلتفت إليه .. انصرف عنها يغمغم بكلمات غير مفهومة.. سمعته يقول بصوت حائر:

- والله مصيبة .. هو كل ضيوفنا خرس كده يا عالم؟..

غيرت الحسناء من صمتها المطبق ، لكنها أصبحت أكثر عصبية .. بدأت تخط على الأوراق المبعثرة أمامها أشياء ما.. جال في خاطري محاولة الاقتراب منها في تلك اللحظة علها تخاطبني وتكسر حاجز الصمت الدائر في ركن الحديقة.. وددت محادثتها كي استشف سرها المجهول.. قلوب الرجال تحس بالضعف أمام أي حسناء.. إن ضعفهن قوة وقوتنا تنتهي معهن إلى الضعف حتما.. لكنه مؤشر التوازن بين البشر.

فجأة تبددت أمالي أو إن شئت قل - فضولي- مع نهوضها المفاجئ لتغادر الحديقة .. تعسا لهذا المساء وأحداثه، انتفضت

واقفا ألاحقها بنظراتي .. اهتزت أنفاسي الحائرة على صوت خطواتها المسرعة .. لا فائدة لأعد إلى مكاني ما زال كوب عصير المانجو في حاجة إلى من يشربه وما زال بصري متجها إلى حيث كانت تجلس.. حسنا جدا.. بغتة لمحت بعض الأوراق متناثرة تحت المنضدة، ومن المحتم أنها تركتها سهوا، قمت لإحضارها.. كان الساقي إياه أسبق مني في التقاطها.. ناديته وأنقدته جنيها كاملا .. أعطاني الأوراق بعد ما أفهمته أنها تخص جارتي .. تبا لكل المنافقين والضالين.. مفاتيح سرها الآن بين أيدي أتفحصها .. يا إلهي إنها تصلح أن تكون ملهمة لمعشر الأدباء، نبض صادق وجريء.. إن اعترافات الحسناء فوق السطور تقول بأنها عاشت ضحية عربدة ونزوات بعض الذئاب .. خلف السطور تستقر قيم العفة والشرف جميعا .. ألسنة تقف عند المظهر فحسب .. أظنك الآن تتعجل وبشغف معرفة تفاصيل الرسالة التي تركتها .. لا ضرر.. لن أتركك تحرم من لذة مضمونها.. كم من نساء أبرياء قست عليهن الشائعات ورمتهن بفنون الاتهامات .. إنه العالم المجنون، السنة غلاظ لا ترحم ولا تعرف للوفاء سبيلا.. اتكأت على مقعدي ..





تطاير دخان سيجار آخر في الفضاء .. تنفست الصعداء، ها هو سر الحسناء يبدو جليا أمامي.. قالت سطور رسالتها:

" استحلفك بحبنا الخالد أن تعود إليَّ ثانية.. تذكر يا (حسين) كل إطلالة قمر وكل مناجاة لنجم سهر مع ليالينا الحلم والحب.. احتاج إليك .. تائبة عائدة إلى محرابك نبني معا عشنا الصغير، سنخرج مع جماعات العصافير ونسمع تغاريد الطيور وهي تصدح باسم حبنا .. أصبحت من الآن بك ولك أنت فقط .. أما علاقتي بالنذل (جمال) فليس لها في قلبي مكان.. تحولت إلى قبح منه وسراب كبير عندي .. أضحت علاقتنا هي الواقع والأمل ، إنه لا يعرف مثلك متعة الكفاح أو نخوة الشهامة ، عربته الفارهة اللامعة فيم كانت تنفعني طالما النفس متعالية وكاذبة؟.. الثروات والسهرات البراقة ما كانت إلا لتخدعني لأنها تدور تحت ألف ألف قناع وقناع.. القلوب معتمة والقيم مرتعشة ،.... ومعك أنت أحس بالوفاء والبساطة ومعنى الضحكة.. الحب الصادق يولد في حبات القلوب ويسري في الأفئدة المخلصة .. يبلغ سن الرشد حينما تحيطه عقول واعية بسياج كل لبناته المودة والتضحية، أما غير هذه المعاني فوهم ونفاق.

....

....

رطوبة آخر الليل تنعكس على جسدي المتجه بكل مشاعره مع حروف الرسالة .. حسنا.. آخر سطورها يقول: أراد استدراجي فريسة في مخدعه لتملك جسدي، هكذا ظلم الذئاب من الرجال للمرأة.. أراد قبلة، همسة، حاول الغمزات واللمسات .. باءت كل محاولات الخطوة الأولى في سباق العشق المسموم بالفشل..

- حسين: أنا في حاجة إلى رجل شهم ينقذني من الوغد جمال وأمثاله.. لا تتركني وسط غابة أخاف كل ذئابها المفترسة.. ما زلت على عهدي ووفائي لك .. إن شبابي سيعود معك .. العيون تطاردني بالسن الكبيرة.. ودمت لي (....)"

بتوقيع ليلى تنتهي تفاصيل رسالتها الملتهبة، طويتها مع أوراقي الخاصة، سددت سهام عيني رأسي في أعماق النيل أفتش عن المعاني الصادقة التي سطرتها ليلى، لم الق منه جوابا شافيا سوى نسمات باردة حلوة ومياه هادئة تنساب في وداعه، تنعكس على صفحاتها أضواء الملهى فيمتلأ الجو بالجلال.

***

الساعة الآن تقترب من الثانية صباحا قمت متكاسلا قاصدا مسكني بضاحية مصر الجديدة .. أدرت محرك العربة.. رحلة العودة تدور بالأفكار القلقة أسرع من دوران المحرك .. الأحداث تتزاحم في خاطري .. الورق في حافظتي خير شاهد على أن النساء هنا فضليات .. ليلى تتراءى لي أكثر من ملاك وأعظم من راهبة .. تعبيرات حروف رسالتها الخطية قد طبعت في خيالي .. بدت كل الصور التي صورها لنا أعداء المرأة تغيب عني وتخرج من دائرة اقتناعي الظالم لها..أشار جندي المرور بعلامة الضوء الأحمر .. جاءت وقفتي عند مفترق قلب العاصمة بالتحديد عن ناصية شارع عماد الدين لمحت من نافذة العربة سحر القاهرة المكتظة ليل نهار.. كانت دهشتي الكبرى أن أرى ليلى على الرصيف المواجه .. الإشارة تطول وجمهرة الناس تحيط بالحدث .. هتف في صمت .. ليلى هكذا.. مش معقول.. اثنين من رجال بوليس الآداب يتأبطان ذراعيها.. ماذا حدث لليلى .. لا بد وأن أحد المخمورين آخر الليل قام بمعاكستها .. انبعث الضوء الأخضر في علامة المرور .. تاه صوتي مع أصوات انطلاق العربات .. آلات التنبيه صاخبة .. أوقفت العربة على مقربة من ليلى .. اتجهت بخطواتي المسرعة عند الحادث .. لسان الحال

يقول إنها ضبطت متلبسة تساوم ثلاثة من الشبان على سهرة رخيصة.. سألتها في غرابة ومرارة بالغين:

....

....

- أصحيح اتهامك يا ليلى؟. لم تنبس بحرف قط.. خسارة كبرى، لقد انتصر الشيطان على الحروف، إنها مضت تغرق في بحر الخطيئة، تعسا ليومي كله عدت لعربتي.. أخرجت من النافذة وريقات الرسالة الصادقة الكاذبة تطايرت القصاصات في الهواء.

***

الرؤى

والهواجس تدور وتتشابك في رأسي .. الدموع تطارد الضحكات .. الأنظار تحدق في اللاشيء .. مرافئ الأمل وشطآن السعادة بعيدة .. بعيدة.. استقرت الأفكار قاتمة في القاع .. عيون آملة مستبشرة تمسح الأفق النائي في تثاقل شديد .. التركيز هش، الخواطر تأتي مسرعة كالبرق .. مرآة الذكريات تنعكس عليها الصور على الرغم مني، أحاول تثبيتها





أو إعادة ترتيبها في مخيلتي لكن حركة المركب الشراعي المضطربة تشاركني شطحات الشرود.

الشمس الآن لحظة فراق .. تودع النهار في كبرياء وسحر بينما خيوط المغيب الذهبية تغمر الكون برونق الألوان الخلاب بينما الأشعة الدافئة تعانق مسطح المياه.. يذيب المشهد بعض همومي ويلقي بها تجاه القاع .. حينئذ يرتاح صدري الثائر وينعم بفيض من السكينة والجمال . أحس بالطبيعة وقد بددت أرقي وحيرتي .. ما زالت الرحلة في عرض النهر .. المركب كعادته يهتز ويتمايل، يترنح بمن عليه كمصارع فقد توازنه .. النشوة تواكب أغنيات حادي المركب.. الطرب ينسيه مجاهدة التيار ، نتشبث بالحياة مع نغماته التلقائية .. الشرود؟.. ليست هنالك إجابة محددة .. الحلم السرابي يمتد ويتشعب النقوش على الرمال مبعثرة ، قصور بلا أرض .. الطموحات تكمن في أغوار المجهول .. خيوط الحلم تتجسد .. ذراع ممدودة تجاه قطعة حديدية مدببة.. مفتاح لامع تطيره وريقات بين طرفين ، الأصابع تحاول اللحاق بالقطعة والورقة دونما جدوى .. الواقع يتراءى في حلم .. ما زال الأمل معلقا على اللحاق بهما .. إن مجرد اتفاق على (أسماء) و (شروط) و (توقيعات) تملأ تلك

الوريقات سيسقط المفتاح من سماوات الأحلام رغم الوجوه الشرهة تبا لخيوط الحلم التي بدأت تحجب بالغيوم هذه الورقة.. قطعة الحديد تخبو هي الأخرى ضاعت أمنية (تملك) حوائط قزمية ضئيلة ذات أعمدة لا يزيد ارتفاعها عن أمتار ثلاثة، هيهات لكن صفحة السماء تعلوها وتكسوها زرقة صافية خيوط الحلم تعود، الدفء يسري في الأوصال، لقد سقطت الورقة على صدري .. كأنما تهدهدني قائلة:

- عفاف.. عفاف.. خلاص اطمئني (عقد) الشقة الجديدة معاك ..و (عقدة) أن يضمنا العيش تحت سقف واحد قد انتهت.

- أشكرك يا رب.. الآن استطيع تحديد ميعاد الفرح.... جسدي الذي تعرى.. مددت يدي أمسك بالورقة والمفتاح .. تحسست بفراشي ابحث عن كومة غطائي، بينما خيوط شمس الصباح الجدي تدخل من النافذة، التي تركتها مفتوحة.. مددت ذراعي مرة أخرى الأسير لأمسك بالورقة والمفتاح،... لم أعثر على أي شيء سوى خيوط محترقة من حلم عجيب .

***

في
ركب السادة يظهر ركب حملة المباخر من مشعوذين .و..
أفاقين ومن هم على شفا حفرة من الجنون .. وتتكاثر أشباه تلكم
النماذج البشرية بأسلوب التطفل ، شأنها شأن نبان "الهالوك"
وبقدر احتراف المداهنة واختلاق الألاعيب .. بقدر ما تكبر
شوكة هؤلاء وأولئك تنقلب موازين العلاقة بين السادة
والعبيد..و.. وفي لحظات آنية تنضج السيوف الباردة للجهال
والكسالى بصنوف الحقد والوخز – اجل حقد ووخز ليس إلا–

والمريض بن(...) شخصية (هالوكية مزدوجة) عاش طيلة حياته القصيرة الرتيبة يبث سمومه .. حتى عرف بأنه عاش ليعبث في الأرض فسادا.. فشاع أمره وانكشف سره.. وأضحى ذلك الشيطان القميء أضحوكة يتندر بها كل من حوله.

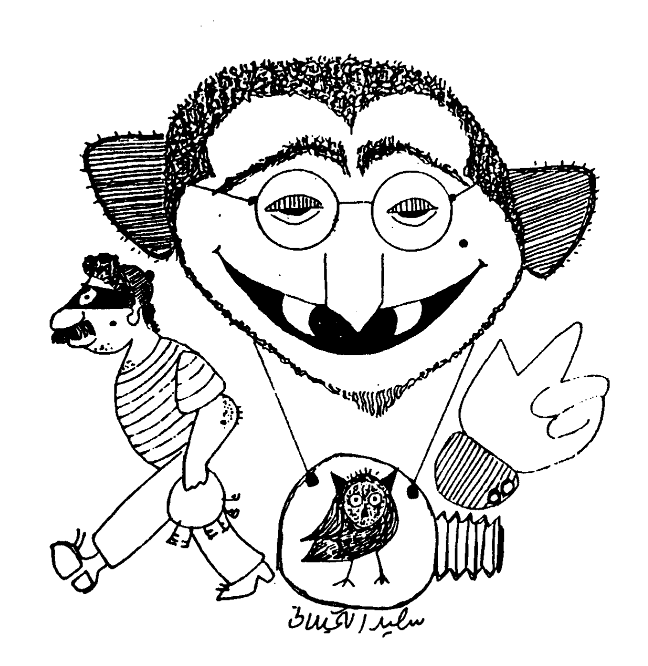
ملحوظة: ليس على المريض حرج.

***

إصبع (الطباشير) .. التفكك الأسري.. ضآلة الحجم .. قلة ذات اليد .. والطموح البعيد.. مع الوجل والكسل واستمرار "الشعوذة" في قصر الأمير.. تزداد ألسنة النيران كمدًا وجهلا .. وهو حيث هو محلك سر.. لذة الأربع وعشرين ساعة في السعي والغي.. سعي ممقوت موقوت .. لا ثمر ولا عمل ولا ضجر.. والغي يثمر ويكبر .. وتكبر أحلام المريض بن مذموم باختراع الآلة البخارية في عصر جنود الانكشارية .. هكذا بطل في شره وفي خيره.. يظهر بالمعجزات .. الألاعيب الأكاذيب .. ما دام الأمير يسمع له ويستجيب.

ملحوظة أخرى: المريض.. هكذا اسمه.

***



١٥١٧ ميلادية.. بداية اكتمال النجم السيار للمريض بين (.....) معذرة.. تظهر عبقريات البطل الشعبي في أزمنة الضعف والانقسام.. دون أن يعي أبعاده.. عاش في الأرض فسادا وفي قصر الأمير .. صور للجميع في حوله انه جاء بالخلاص .. من كل من يحاول الاقتراب من المملكة أو منافسة حاشية الأمير..

في الأثر: (يعذب المصوزون يوم القيامة).

في عصور الظلمة تكثر الغمة ويزداد الانقسام وينمو (الهالوك) وتروج أعمال الحواه .. والمناخ خصب ورحب كي يمارس .. ابن مذموم هوايته .. غوايته.. أفعى.. بين الأخضر واليابس.. عند الخير وطوائف الشر ..(معذرة وعند ممالك الشلل أيضا!!..) وفجأة قطع دابر الفساد أمير غير مملوكي ولا عثماني ، مصري السمات.. شرقي الملامح..

قال:

- أقيموا العدل العدل في السلطة.

" اجعل لسانك يتجه إلى الحق، ولا تضل.. إن لسان الرجل وسلوكه هما سبب تلفه " شعار فرعوني موروث من الألف

الثالثة قبل الميلاد.. يا للحق.. يضعه الأمير نصب عينيه .. ولما كانت الجرائم التي شاعت في البلاد يفعل مثل هؤلاء الأوغاد من أمثال ذلك الوغد قبحه الله.

قال الأمير:

- عليكم بتعاليم الحكيم الفرعوني " امنوبي"

قال الحاجب في حضور جمع جاءوا لمشاهدة المحاكمة.. سيحكم أميرنا بما يرضي الله .. يقول امنموبي : لا تشتبكن في جدال مع أحمق .. تأن أمام المتطفل .. وأعرض عمن يهاجم .. قارب الشره، الحاقد، يعوقه الطين.. وقارب الرجل الرزين يقلع مع النسيم .. الإنسان يبني ويهدم بلسانه .. فاحفظ لسانك من اتهامات شائنة.

المحاكمة:

صاح الحاجب: حرك الدفة حتى يمكن للرجل الخبيث أن يعبر إلينا..

امتلأت قاعة المحكمة بالنظرات المصوبة قبالة المريض بن مكسور .. تلعثم .. تصبب عرقا وخزيا .. معذرة مرة أخرى

لأن حملته كانت الشر.. وفي تثاقل ممن قال ابن (.....) مقولته الأخيرة:

- سيدي الأمير .. السادة القضاة.. اعترف بذنوبي .. كثرت أوراقي .. ثقلت موازيني والموت أمامي .. فهل استمحيكم قبل النطق بإعدامي أن أرجوكم ؟!..

- بم؟

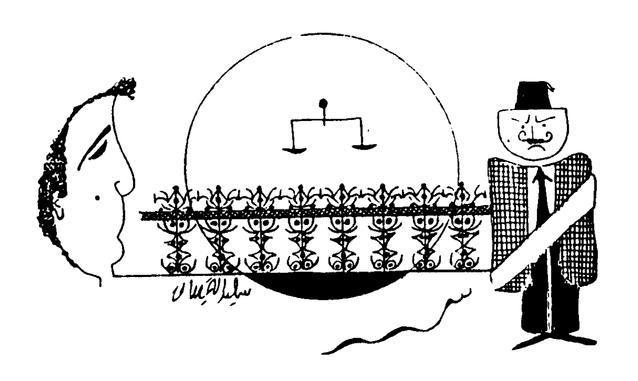
- بتصحيح اسمي من المريض (ابن الـ....) إلى (ابن الممدوح) لأنني آمنت - أخيرا- أن عقاب الإجرام على من اقترفه.

....

- وهل لديك جديد؟!

- نعم.. ألا أجاوز بمكائدي حدود داري وسأصلي لأذيب كل ذرات الحقد، كي اقلع مع النسيم..

***



مع

أنداء الفجر طفق صاحبنا يردد ترنيمات دعاء مصدره مسجد قريته الصغيرة.. مرت دقائق.. وعاد إلى داره تحاصره دوائر عديدة من كل حدب وصوب.. لكنه ظل واثقا بأن فرج الله قريب.. في معترك الحياة تحيط الدوائر العديدة بأحلام الإنسان الكثيرة، عبارة غائمة تحولت إلى قيود أطبقت على رأس صاحبنا بغلالات من يأس وشقاء.. الهدوء الحذر يكاد يلف

القرية.. الشمس الحنون تعلن انبثاق الصبح الجديد.. لم يحص صاحبنا بقدميه وهما تنقلانه بسرعة البرق إلى قرب منزله.. نظر إلى قرص الشمس الوليد ، انعكست فوق صفحته تباشير الأمل .. ربما يفيق صاحبنا من أحلام السقوط في دوائر اليأس وهواجس المرارة التي تحاصره ليل نهار.. وقبل أن يطرق باب داره اختلس نظرة ثانية إلى قرص الشمس النحاسي لحظة الشروق، وتساءل في حسرة:

- آه .. لكم تحملين إلينا أيتها - الشمس- ملايين المعاني المليئة.. بالدفء المليئة بالوضوح و.. ما لبث أن أجاب عن تساؤله قائلا:

- يبدو أن ارقي الدائم أصابني بالهذيان المحموم.. كفاني الآن غزلا في الشمس .. همت زوجته على مضض تعد لصاحبنا كوبا من الشاي بديلا عن الكوب الذي سقط من يده لتوه..عادت بعد لحظات قصيرة تحمل إناء الشاي قائلة:

- اتفضل يا عبد الله .. ولا يهمك فداك كام شاي. رد محتدا:

- حتى أنت.. أظن كثير علي براد الشاي فدية .. غيرت زوجته من الحوار ولفتت انتباهه قائلة في دل:

- حقك يا عبد الله.. غير ريقك .. شد حيلك ميعاد سفرك قرب.

- فكريني..وا.. شغلي في المحكمة مهم النهارده .. دا غير .. المحكمة الدائرة في دماغي.

....

....

- أنت الوحيد يا عبد الله المتغزل في قرص الشمس، على حين غزل الأدباء والعشاق في القمر لا زال مستمرا.. لا بأس.. انه غزل بلا زحام .. لا يشاركني إياه أحد .. ولي حجتي التي أنفرد بها عن معشر أهل الفن.. تيقظ عبد الله من شروده على صوت محصل السيارة في ندائه التقليدي :

- تذاكر .. تذاكر.. أنت يا أستاذ؟..

- آه.. واحدة.. الزقازيق من فضلك..

ضاق بالضجيج المنبعث من محرك العربة وثرثرة ركابها .. لكنه مرة أخرى يعود إلى شروده ونجواه يحدق في دوائر اليأس.. الدوائر تحاصره في يقظته مثلما تزعجه في أحلامه .. نظر إلى معصمه فألمح ببصره ساعة يده .. حسن أن لديه مرافعة هامة بالمحكمة بعد ساعة من الآن.. لقد وصلت العربة من القرية إلى المدينة بأعجوبة في موعدها المحدد، اتسم لذلك صاحبنا سقطت دائرة من الدوائر التي تحاصره.. ضحك من أعماقه ولسان حاله يترنم في صمت :

- ما أحلى الالتزام إلينا؟..

- ذات يوم قال جد صاحبنا: اضبط ساعتك يا عبد الله.. لا. بل اضبط مواقفه على حقيقتين:

نظام السكة الحديد ونظام المحكمة. مقولة سديدة مأثورة تتعثر تحت أعيننا اليوم .. وصل صاحبنا عبد الله إلى مكتبه وهو يحلم بالمرافعة المرتقبة.. بعد دقائق غادر مكتبه في صحبة سكرتيرة إلى قاعة المحكمة.. أشعل سيجارته بين أصابعه وبدل

نظارته غير مرة وهو يتفحص أوراق القضية.. احتشد جمع غفير في أوراق الجلسة ، الانتظار يطول.. وفجأة أعلنت سكرتارية هيئة المحكمة تأجيل النظر في قضايا اليوم لتعذر وصول الهيئة الاستشارية.. صدم الجميع.. غمغم عبد الله بكلمات غير مفهومة وهو يتعجب في حوار تغلفه المرارة:

- أيصل أتوبيس قريتي المتهالك في موعده ويتعثر قطار القضاة.. سقط أبعاد مقولتك يا جدي.. يرحمك الله.

....

- لابد وأن في الأمر ش..........

- عجبا: لعل خطين مستقيمين يسير عليهما القطار دائما ولا يصل اليوم إلى غايته.. بينما عربة قريتي تصل في موعدها برغم الحفر والمنحنيات والدوائر و.......

....

- آمنت أخيرا : أن استقامة الخط الحديدي قد لا تكفي انتظام الوصول.. عاد صاحبنا إلى مكتبة أسيفا مكتئبا.. لقد خذل

اليوم.. المعاناة تزداد وتتعقد وتتحول إلى مزيد من الدوائر التي يكابدها .. أطاح عدم وصول القضاة بآماله في أن يترافع في قضايا مضمونة.. الهواجس تروح وتجيء .. نعى صاحبنا عبد الله نفسه بأنه بالإمكان تشكيل هيئة قضائية وأخرى للدفاع يتولى هو أمر الدفاع وأمر الفصل في شأن الإنسان ظالما ومظلوما وعلى الفور نهض من فوق مكتبه وخطا خطوات ثقيلة وراح يغلق باب الحجرة ورجع إلى جلسته يتحسس طريقه ، وما لبث أن تكوم عند أول مقعد صادفه حيث ارتسمت علامات الخروج من عالم الحركة إلى عالم السكون فوق جسده النحيل أو إن شئت دقة الوصف فقل أبرع ممارس (لليوجا)..و.. هدأت الحواس الخمس

....

....

تحول عبد الله ينبش في الدماغ يبحث عن علة ارقه وهواجسه، وبالرغم من الموات المؤقت للحواس الخمس اتفق في صمت يدير اغرب حوار مع الدوائر التي تحاصره ولا يستطيع منها فكاكا .. مرة يعجز ومرة أخرى يصمت وثالثة يتعجب ورابعة يجبن وهو يلف حول المركز الأم لهاتيك الدوائر .. سعار التطلع المادي يحاصره دوما عند المركز وآماله تتحطم كلما تحرك بها حول دائرة السعادة.. سعادته هو وسعادة من حوله.. وأخيرا أسلم ذاته في مرافعة صامتة مع الخلية الأم من داخل المخ المسيطرة على جميع خلايا الجسم.. قالت له الخلية الرئيسة في صمت:

- لقد أتعبتني وأتعبت نفسك وأتعبوك..

- أجل يا سيدة كل كائن مفكر.

- والآن ما عليكم إلا أن تخرق الحصار الذي ضرب من حولك.

- سمعا وطاعة سيدتي.

- السمع والطاعة وحدهما، بلا تفكير وبالا إضافيا عليك .

- كيف؟.. حتى أنت أيتها الخلية تصببين الأعباء فوق رأسي..

- معذرة.. المشكلة انك وجميع كائنات المملكة المفكرة تترددون.. ومن ثم الإذعان قبلا لكل أنواع النفاق والكذب والفساد واللامبالاة و..

- هذه فلسفة لم أتعمقها بعد..

- يا صاحبي نحن شركاء في تشويه ركب الحياة عندما نستمريء "اللامبالاة" و"الأنامالية"

- ثم ماذا ؟.. أصبحت بشوق لسماع المزيد من مرافعتك حول الإنسان.

- ألا عرفت أن دوائر الخير في تكوينك وتكويني أكثر من دوائر الشر ؟..

- بلى.. هذه بارقة أمل ودلالة هامة على صحة اغلب خلايا كائنات المملكة المفكرة.

- ذلك أمر يقيني .. فأنت يا صاحبي مثلا على الرغم من الضباب المتردي أمام ناظريك .. فلا أراك تعربد أو تسرق أو تنافق أو تحقد أو تظلم لا أراك تنام بانتظار الـــ..والعلاج؟

- إن ما أصابك معي من هزال هو الشطحات والثرثرة الدائمين، بينما باستطاعتك السعي إلى خارج الدوائر انطلاقا من داخلها..

- كيف؟..

- لتكن إفادتك قدر ارتيادك الصعب وعلى قدر مساو لمدى تعاوننا معا.. والصعب يا صاحب كالصبر مفتاح للفرج.

- حسنا – من الآن فصاعدا- لابد من إعادة حتمية تصوغ من جديد أدوارنا المشتركة.

- نعم.. وسيشاركنا الرأي والفعل الخلايا الصحيحة في المملكة المفكرة .. سبيلنا إلى مرافئ الخير وأزاهير العدل وأنسام الحياة.

- أخيرا .. أكاد أومن بإمكانية الخروج من حصار الدوائر المغلقة إلى النوافذ البكر المهيأة لاستقبال ضياء الشمس.

- أبوح لك يا صاحبي بأخر طوق نجاة: كن كالنحل في مملكته الجادة وإلا فالسقوط ينتظرك على الحلقة.. وسينادى عليك للنهوض – بتثاقل شديد– قضاة غير قضاة المحكمة.. من الشرق تارة ومن الغرب تارة أخرى وربما من أهل الشمال والجنوب كذلك ..

....

....

فجأة استيقظ عبد الله من حلم اليوجا اللذيذ وهو يتنهد بأعلى صوت في صمت، تنهيده عميقة طويلة، وخرج يعدو من فوره

إلى خارج غرفة مكتبه حيث استوقفته عبارة تعلو حائط الصالة
.. إدراك قراءتها لأول مرة .. تغنى بها في فرحة:
انفراج حالنا اليوم مقرون بان نسعى في جدية ووعي ونؤمن في محبة وسلام.. يؤمئذ نجتاز المسافة بين قيود الدوائر إلى آفاق الضياء بعدها . ضحك عبد الله بملء فيه :
عرفت الآن سر استدارة الشمس في تجليات الشروق.

***

♣اغتيال



دقات

الساعة تعلن في إيقاعها الرتيب منتصف الليل .. الثواني الباقية معدودة ويتعانق مؤشرا الساعة .. فجأة همد صوت الموسيقى الصاخبة .. بهتت الألوان الصارخة .. تحرك فحيح الغريزة .. عوت الذئاب من الداخل .. انزوت مائدة حمراء فوق ركن بعيد

شمال صالة الملهى .. فوق المائدة وضع عامل الملهى ما لذ وطاب من طعام.. وشموع.. وشراب.. مع عطر نفاذ يلذ العيون الزائغة الجريئة.

قالت راقصة الملهى في تأوهات مثيرة وفي ضحكة لعوب:

- واحد.. تاني من الشمال .. واحد .. تسعة.. ثمانية .. ثمانية وبس، رقصني يا روحي على واحدة ونص. رد عليها ذئب بشري مسكين في لهفة:

- حلاوتك!.. ليلتنا حساب وفوق الحساب حظ وأنس.

***

و.. وفي المنزل انكب(عمرو) فوق مكتبه الصغير يطالع أحد دواوين الشعر العربي القديم .. أجل .. قد يحدث مثل هذا في هذا الزمان الجديد.. لا عليك من الدهشة .. الساعة في معصم عمرو تعلن هي الأخرى مولد الدقيقة الأولى من عمر السنة الجديدة.. حسنا.. ميلاد بلا تلوث أو غواية.. إنما في متعة خاصة مع القراءة .. وضع عمرو لافتة أمامه تعلن من فوق مكتبه: القراءة بناء وتطهير.. مقولة روحية تسري في أوصاله

كسريان النار في بيروقراطية الموظفين.. ليل الشتاء يحمل إنذارات العصر الجليدي القادم .. بل القيظ في عصر التغير المناخي، الشعور بالوحدة بعد القراءة يدفعه إلى الشرود البعيد .. يترك مكتبه ويجلس أسير أمام البث التليفزيوني تبهره الألوان.. متعة من الخارج.. ينسحب من القشرة الآسرة إلى البؤرة الشاعرة .. يدخل إلى عالمه المفضل مرة أخرى .. يقلب في صفحات تراثه التليد.. النهم الأخاذ.

أستطاعت (هيفاء) أن تلمس في (عمرو) هذا الجانب الطيب.. نما معها عشق الفن ، والسهر عليه.. أعجبه في هيفاء الميل إلى الموسيقى والرقص منذ أن كانا بالجامعة.. إعجاب من نوع نادر يقدره أهل العلم والفن- كل ما يطالعه وما يزال- يجده في ربة جماله ومليكته الأثيرة.. كان عمرو يشجعها ويتابع نشاطها الفني بعد أن يعود من عمله في استزراع منطقة صحراوية عند أطراف المدينة.. كان يقف إلى جوارها وهي تحترف العمل مع أحد الفرق الفنية.. كانت (هيفاء) مبهورة بشخصيته الطيبة ومثاليته النادرة في عالم رجال اليوم .. وأصبحت تحت إمرته إلا في شيء يتيم عندما يدعوها للقراءة .. مهلا لذلك..فلكم

حضر معها تدريبات العزف .. عزفت هيفاء ودائما على إيقاعات قلبه .. استقرت في وجدانه كقصيدة شعر باقية.

من داخل ذات الملهى .. ما زالت الأنوار المنبعثة من داخله حمراء.. خافتة ماكرة، لا تعرف الهدوء.. تكاد صالة الملهى تقبع في إظلام.. الأسنان الصفراء باتت ملامح مميزة من حول الموائد .. رائحة الخمور تزكم الأنوف .. صنوف وصنوف.. بلغت النفوس حد الغوص في الوحل .. قامت قيامة الغريزة .. حمى الاحتفال بمولد سنة جديدة .. تبا لأصحاب الأسنان الصفراء والقواطع السوداء.. والأنياب الحمراء. التف حول مائدة فخمة تتوسطها شمعة كبيرة ترمز إلى كبار.. شلة من كبار الذئاب وكأنما جدران الملهى تقوم على شرف خدمتهم أجل.. لقد جاءوا يستمعون بأرباحهم من عائد تجارة "الصابون" و"الزيت" و"....." و.. وفجأة أضيئت الأنوار المبهرة مع اقتراب فجر جديد .. أشار كبيرهم يطلب مدير الملهى .. قال في لهجة آمرة وهو يشير إلى (هيفاء) من بين جموع الفرقة الموسيقية:

- لتسبقني – هذه– على شقة الزمالك.

....

- ولا كلمة.. لك حرية التصرف..

....

كان مدير الملهى خبيرا في الإيقاع بهن .. شباك الصياد تلك الليلة حديدية .. أدار الخمر برأسه الصغير .. يا لسوء الطالع .. لم تشربه قط.. وفي الزمالك أحرز الذئب البشري .. هدفا وقحا في مرمى الفن.. ومع أول خيوط تبعثها الشمس على دنيا السنة الجديدة ، كانت هيفاء متكومة داخل عربة فارهة يقودها حمل مطيع لأحد الذئاب البشرية .. ربنا يهدهم .. شهقة عفوية خرجت من السائق وهو يحاول إيقاظ هيفاء من (.....) المفقود .. المفقود الأول وآخر مرة .. لم تقدر على الكلام .. أصيبت بالخرس.. كتبت في ورقة صغيرة:

- أتوسل إليك .. وصلني لعمرو..

....

....

قال لها في شفقة مقرونة بالتساؤل:

- ويطلع مين عمرو .. مكانه فين بس؟!.

- أول مزرعة بعد المطار..

- على عيني يا ست هانم..

صرخت هيفاء في مرارة عميقة وصمت مطبق ..أنا الآن ست هانم !! آه يا ولاد الـــ(.....) آه من زمن تقتل فيه أحلام الشرفاء.معذرة. .. أحلام الشعراء.

***

صدر للمؤلف(*)

أ- طبعات من مجموعات قصصية:

١.وجوه وأحلام، قصص قصيرة ، ط١،ط٢ سلسلة أصوات معاصرة ، ١٩٨٢م، (نفدتا).

٢. المستحيل، قصص قصيرة، ط١ الدار العربية للنشر والتوزيع، القاهرة.

٣. عفاريت سرايا الباشا، قصص قصيرة، ط١، الدار العربية للنشر والتوزيع، القاهرة.

---

* أ.د. أحمد زلط ، كاتب وناقد أكاديمي مصري معروف، قام بعمل رئيس قسم ووكيل كلية التربية النوعية ببورسعيد، ثم عمل أستاذا ورئيسا لقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية بكلية التربية بالإسماعيلية، ثم رئيس لقسم اللغة العربية وآدابها فوكيلا لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالإسماعيلية ، جامعة قناة السويس ، شارك في مؤتمرات أدبية وعلمية مصرية ودولية، وأستاذ زائرا، ومحكما لمسابقات وبحوث أدبية وعلمية ، ومتحدثا للبرامج الإذاعية والتليفزيونية المتخصصة، ومستشارا لتحرير سلسلة أصوات معاصرة، ولبعض دور النشر، رشح – غير مرة- لعدة جوائز عربية.أشرف وناقش بعض الرسائل العلمية في مصر والسعودية ، نشرت كتاباته في اغلب الدوريات المصرية والعربية، يعمل عضوا بلجنة النقد باتحاد كتاب مصر ونائبا لرئيس النادي الثقافي بجامعة قناة السويس..

٤. أصابع متوحشة، ط١، هبة النيل للنشر والتوزيع، القاهرة.

ب) طبعات من كتب في الدراسات الأدبية والنقدية:

٥. قراءة في الأدب الحديث، ط١، دار الشرق ١٩٨٤م(نفدت).

(-) قراءة في الأدب الحديث، ط٢، على نفقة المؤلف (نفدت).

٦. فكر الدكتور هيكل بين الحضارتين الإسلامية والغربية، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م، (نفدت).

٧. دراسات نقدية في الأدب المعاصر، ط١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٢م.

٨. رواد أدب الطفل العربي، ط١، دار الأرقم، ١٩٩٣م.

٩. في جماليات النص، ط١، الشركة العربية للنشر، القاهرة ١٩٩٤م.

١٠.أدب الطفولة أصوله ومفاهيمه، ط١، الشركة العربية للنشر، القاهرة، ١٩٩٤م.

(-)أدب الطفولة أصوله ومفاهيمه، ط٢، ٣، ٤، ٥ (نفدت).

١١. أدب الأطفال بين أحمد شوقي وعثمان جلال، ط١، دار الجامعات المصرية، القاهرة، ١٩٩٥م.

١٢. ديوان السنهوتي للأطفال ، ط١، دار الفارس العربي(نفدت).
١٣. أدب الطفولة بين كامل كيلاني ومحمد الهراوي، ط١، دار المعارف، ١٩٩٥م.
١٤. الطفولة والأمية، سلسلة اقرأ، ط١، دار المعارف، ١٩٩٦م.
١٥. أدب الطفل، ثقافته وبحوثه، ط١، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض (بالاشتراك).
١٦. مدخل إلى أدب الطفولة، ط١، إدارة النشر بجامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض.
١٧. نظرات نقدية في ثلاث مسرحيات شعرية، ط١، هبة النيل، القاهرة، ١٩٩٧م.
١٨. الخطاب الأدبي والطفولة، ط١، الهيئة العامة لقصور الثقافة، وزارة الثقافة(نفدت).
١٩. معجم مصطلحات الطفولة، ط١، هبة النيل، القاهرة، ١٩٩٨م.
(-) معجم مصطلحات الطفولة، ط٢، دار المعراج الدولية، الرياض(نفدت).
٢. الطفل مبدعا، ط١ دار الوفاء للنشر، الإسكندرية (نفدت).

٢١. الطفولة والإبداع الأدبي، ط١، دار الوفاء للنشر، الإسكندرية (نفدت).

٢٢. ذاكرة السَحَر (نقد تطبيقي)، ط١، هبة النيل النشر والتوزيع.

٢٣. مدخل إلى علوم المسرح ، ط١، دار الوفاء، الإسكندرية(نفدت).

(-) مدخل إلى علوم المسرح ، ط٢، على نفقة المؤلف (نفدت).

(-) مدخل إلى علوم المسرح ، ط.٣

٢٤. أدب الطفل العربي دراسة في التأصيل والتحليل ، ط١، هبة النيل للنشر والتوزيع.

(-) أدب الطفل العربي دراسة في التأصيل والتحليل، ط٢(نفدت).

(-)أدب الطفل العربي دراسة في التأصيل والتحليل، ط٣(نفدت).

٢٥. في أدب الطفل المعاصر قضاياه واتجاهاته، ط١، دار هبة النيل للنشر والتوزيع (نفدت).

(-) في أدب الطفل المعاصر، ط.٢

٢٦. الأدب المقارن قضاياه واتجاهاته ونماذج منه، ط١، دار هبة النيل للنشر والتوزيع.

٢٧. من روائع القصص الخيالي الشرقي، ط١، دار الوفاء، الإسكندرية(نفدت).

(-) من روائع القصص الخيالي الشرقي، ط٢(نفدت).

(-) من روائع القصص الخيالي الشرقي، ط٣(نفدت).

(-) من روائع القصص الخيالي الشرقي، ط٤(نفدت).

٢٨. البخلاء دراسة أدبية سيسيولوجية ، ط١، دار هبة النيل.

٢٩. مبدعون ومجددون، ط١، دار الشروق.

(جـ) كتب ومذكرات المحاضرات الجامعية:

٣٠. في النقد الأدبي الحديث.

٣١. تاريخ الأدب الحديث.

٣٢. في الأدب المصري.

٣٣. قصص الطفولة.

٣٤. في مصادر التراث العربي.

(د) كتب قيد النشر (تحت الطبع):

٣٥. حسين علي محمد، شاعرا ومسرحيا.

٣٦. شهد وأخواتها، قصص قصيرة (٢٠٠٧م).

٣٧. أروع أشعار الوطنية والمقاومة (جمع ودراسة).
٣٨. أسمار وأسفار (سيرة ذاتية).
٣٩. الخطاب الشعري السياسي (اتجاهاته وأعلامه في مائة عام).
٤٠. القصيدة السياسية العربية (٤ مجلدات).
٤١. محمد جبريل وعالمه القصصي.

هـ- بحوث محكمة ومنشورة في مؤتمرات ودوريات قيد النشر في كتب:

٤٢. في أدب الفكاهة العربية.
٤٣. في أدب المرأة المصرية.
٤٤. عصام الغزالي، شاعرا.
٤٥. فن الاختبارات الشعرية المعاصرة.
٤٦. في أدب الطفل العبري.
٤٧. فن القص عند خيري شلبي.

الفهرست

رقم الإيداع القانوني بدار الكتب والوثائق القومية
(٢٧٥٩/ ٨٨/ ١٩٨٢م)